القيم الأخلاقية عند ابن الرومى

"دراسة وصفية تحليلية"

دكتورة

شيماء سعيد محمد بكري

قسم اللغة العربية - كلية الآداب

جامعة بنها – جمهورية مصر العربية

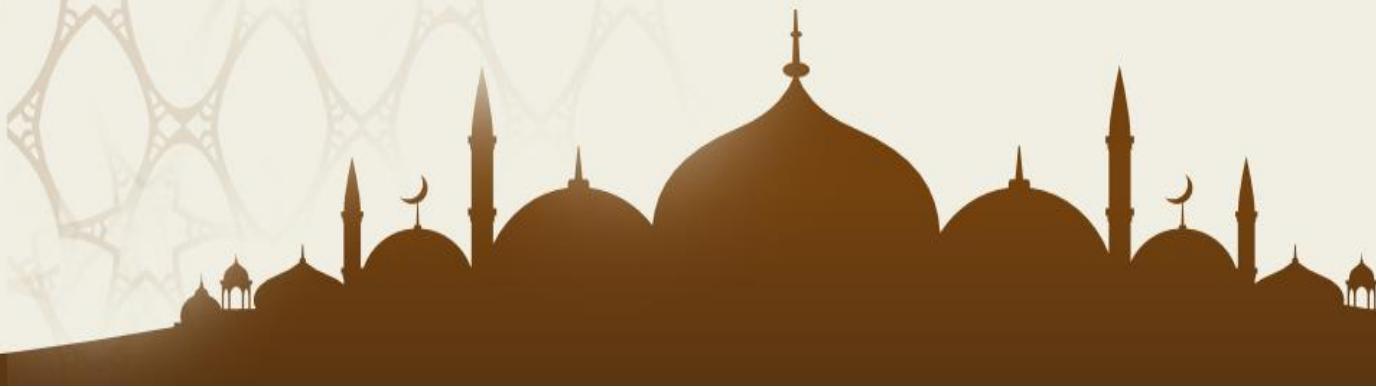

الملخـــص

تناول البحث وصف القيم الأخلاقية عند ابن الرومي، وكيف تنوعت تبعًا لإبداع الشاعر وعبقريته، والأخلاق هنا لا نعني بها المعنى الديني البحت، ولكن تم تناولها من منظور الشعر، وذلك لأن الهدف من الدراسة هي إظهار هذا الجانب والدفاع عن الشاعر من خلال شعره ضد من وضعوه في دائرة السوداوية والهجاء، فألقينا الضوء على المعنى الأخلاقي وكيفية تناوله وعرضه والبحث عنه داخل الديوان، وقد استخدمت المنهج الوصفي التحليلي، حيث قمت بإحصاء تلك الظاهرة مع توضيح كيف استطاع توظيف إبداعه الشعري في توجيه الأنظار نحو القيم الإيجابية في المجتمع، ومدى تأثيرها على الفرد خاصة وعلى المجتمع عامة، وذلك بعد اختلاط الكثير من الفئات الاجتماعية المختلفة، ودخول الكثير من العناصر غير العربية، ويكتسب البحث أهمية خاصة باعتباره دراسة مختلفة ومغايرة لما ألفناه واعتدنا عليه عند الحديث عن ابن الرومي، إذ خالفت بذلك ما اتفق عليه الكثير من الكتاب الذين كتبوا عن الشاعر، ووضعه في دائرة مغلقة ترسمها النظرة التشاؤمية وتملؤها السوداوية ويدفعها نحو الظهور الهجاء المقذع، إلى إلقاء الضوء على الجانب المشرق من حياته، حيث الأخلاق والقيم التي وإن كان قد وظفها لخدمة أغراضه الشخصية، إلا أنه - وبلا شك - كان يرجو بها الحياة المأمولة له ولمجتمعه، فالبحث العلمي إما أن يغير مفهومًا أو يثبت معتقدًا.

الكلمات المفتاحية: القيم الأخلاقية ، الأخلاق، شعر ابن الرومي ، العصر العباسي.

دكتوره

شـــيماء بكـــرى

قسـم اللغة العربية - كلية الآداب

جامعة بنها – جمهورية مصر العربية

shaimaamohamed@fart.bu.edu.eg

Abstract

The research dealt with describing the moral values of Ibn al-Rumi, and how they varied according to the creativity and genius of the poet. We do not mean morals here in a purely religious sense, but they were dealt with from the perspective of poetry, because the aim of the study is to show this aspect and defend the poet through his poetry against those who put him down. In the circle of melancholy and satire, we shed light on the moral meaning and how to address it, present it, and search for it within the collection. I used the descriptive and analytical method, where I counted this phenomenon while explaining how he was able to employ his poetic creativity in directing attention towards positive values in society, and the extent of their impact on the individual in particular. And on society in general, after the mixing of many different social groups, and the entry of many non-Arab elements, and the research acquires special importance as it is a different study and different from what we are accustomed to and accustomed to when talking about Ibn al-Rumi, as it contradicted what many writers who wrote about Ibn al-Rumi agreed upon. The poet, and placed him in a closed circle drawn by a pessimistic view, filled with darkness, and pushed towards the appearance of disgusting satire, in order to shed light on the bright side of his life, where the morals and values that, although he had employed them to serve his personal purposes, he - without a doubt - hoped for the life he hoped for. For his society, scientific research either changes a concept or confirms a belief.

Keywords: moral values, ethics, Ibn al-Rumi's poetry, the Abbasid era.

Dr

Shaima Bakri

Department of Arabic Language,
Faculty of Arts, Benha University,
Arab Republic of Egypt

shaimaamohamed@fart.bu.edu.eg

مقدمـــة

الحمد لله خلق الإنسان علمه البيان، الحمد لله القائل:" وإنك لعلى خلق عظيم"، والصلاة والسلام على خير خلق الله رسولنا الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام، وعلى آله وصحبه الكرام الذين تخلقوا بأخلاقه، وتتبعوا سننه وتعاليمه، فكانوا قدوة لمن تلاهم في الأخلاق والدين.

كثرت الكتابات وتنوعت عن ابن الرومي، وسال حِبْرُ كثير من الدارسين حول شخصيته وشعره وأسلوبه، ولكن على الرغم من ذلك، فلا توجد دراسة مستقلة كافية وافية قد تناولت استراتيجيات الأخلاق عنده، إذ تمحورت الكثير منها حول ما قاله المازني عن العقاد حين وصف دراسته بالكافية، قائلًا: "إن المتتبع لما كتبه العقاد يجده لم يدع فيها شاردةً ولا واردة، ولا ترك شيئًا لسواه يقوله، حتى صار قصارى غيره إذا كتب أن يترسمه ويُفَصِّلُ ما أجمل، مستعينًا في ذلك بالمصادر ومستشهدًا بشعره"(١)، ولا شك أن كتاب العقاد عن ابن الرومي يعد مصدرًا مهمًا لكل دارس أدب يتطرق ذهنه لدراسة الشاعر، فكبار الكتاب كالمازني وطه حسين وبروكلمان، قد عادوا إليه، مما يؤكد مدى أهمية دراسة العقاد كمرجع أساسي عن ابن الرومي(٢).

لكن معظم الدراسات انصبت حول الحديث عن حياة الشاعر والحالة النفسية له: كالاضطراب والتناقض والطيرة والسخرية والهجاء المقذع، أما الحديث عن القيم الأخلاقية داخل كتاب العقاد متناثرة في بضع صفحات قليلة جدًا، ولم يحدد لها مثلا عنوانا مستقلا، إلا أنه أشاد ببراعة ابن الرومي وإبداعه في جميع الموضوعات، وقد يرجع عدم

(١) إبراهيم عبدالقادر المازني: حصاد الهشيم، مؤسسة هنداوي، ٢٠١٠م، ص٢٢٣.

(٢) عباس محمود العقاد: ابن الرومي حياته من شعره، مؤسسة هنداوي، ٢٠١٤م، ص٢٦٤.

الاهتمام بهذا الجانب عند شاعرنا من قِبل الدارسين أن الكتاب الأساسي لدراسته (العقاد) لم يركز التركيز الكافي الذي يجعل من يقرأه يلتفت له.

لقد بدأت الموضوعات تترسم خطاها بداية من دراسة أستاذنا العقاد، وإن توسعت في محتواها واختلفت في موضوعاتها، فوضعوا أنفسهم في دائرة ابن الرومي[1] المغلقة، دون النظر فيما قاله العقاد في آخر صفحات كتابه، حين سُئل عن أي باب من أبواب الشعر كان ابن الرومي يجيد خاصة ؟ قال: كان ابن الرومي يجيد في أبواب الشعر كلها على حد سواء، وليس الهجاء فقط، معللًا شهرة الشاعر بالهجاء، أن الهجاء كان الأشهر والأيسر، ولو كانت الألسن تتساير بالوصف البارع كما تتساير بالهجاء اللاذع لغطى وصفه على هجائه، إلا أن كثير من الدراسات أبت إلا أن تضع ابن الرومي في هذه الدائرة المغلقة، ومن هنا كانت البداية.

فبالرغم مما اشتهر به ابن الرومي من اتباع التشاؤم والصورة السوداوية للحياة، والذي ركزت عليه معظم وإن لم يكن جل الدراسات التي كتبت عنه، فإن ابن الرومي كما هو متعارف عليه هو المبدع

---

(١) ابن الرومي: أبوالحسن علي بن العباس بن جريج، (٢٢١هـ ــ ٢٨٦هـ، من شعراء العصر العباسي، القرن الثالث الهجري، إذ بدأ حياته في العصر العباسي الأول ومضى أكثرها في العصر العباسي الثاني، كما عاصر تسعة من الخلفاء العباسيين: المعتصم، والواثق، والمتوكل، والمنتصر، والمستعين، والمعتز، والمهتدى، والمعتمد، والمعتضد، ولن أطيل في الحديث عن حياة الشاعر، إذ لم يكن المقصد الإسهاب في الحديث عن حياته لشهرته الذائعة، بيد أن طبيعة البحث تقتضي إلمامًا موجزًا بسيرته بغية الولوج إلى موضوع البحث، انظر ترجمته: (ابن خلكان)أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر بيروت، ج٣، ١٩٠٠م، ص٣٦٠،٣٦١. أَبُو ٱلْحَسَن عَلِيّ ٱبْن ٱلْحُسَيْن ٱبْن عَلِيّ ٱلْمَسْعُودِيّ: مروج الذهب ومعادن الجوهر، القاهرة، ١٣٤٦هـ، ج٤/ ١٨٢: ١٩٤.

المجدد المتنوع في شعره، فالمبدع المجدد نتيجة لما ابتكره من توليد للعديد من المعاني، والمتنوع لتعدد الأغراض في شعره، وصدقًا كما وصفه ابن خلكان بأنه "الشاعر المشهور صاحب النظم العجيب والتوليد الغريب، يغوص على المعاني النادرة، فيستخرجها من مكانها ويبرزها في أحسن صورة، لا يترك المعنى حتى يستوفيه إلى آخره ولا يبقى فيه بقية"(١).

"لقد كان للقيم نصابها بالنسبة لشاعرنا، وهو لا يبرح يشكو من افتقادها وعبث معاصريه بها، وقد نقم على مجتمعه وأناسه لتخليهم عن معنى الإنسان فيهم، وأصبح شعره مرآة لاقطة تنعكس فيها آفات العصر وعاهاته"(٢)، فلا يوجد بينهم من يستحق المديح في نظره، لذلك يرى في هجائه لهم حقًا لا باطل، وعليه يقول:

قِيلَ لِي: لِمَ ذَمَمْتَ كُلّ البَرايا وَهَجَوْتَ الأَنَامَ هَجْوًا قَبِيحًا
قلْتُ: هَبْ أَنَّنِي كَذَبْتُ عَلَيْهِم فَأَرُوني مَنْ يَستَحِقُّ المَدِيحَا(٣)

ومن ناحية أخرى يريد الشاعر أن يلفت الأنظار إلى مثالب ونقاط ضعف كانت موجودة في مجتمع القرن الثالث الهجري، حتى إنك لتقرأ مثلًا عن سخريته وهجائه لتحكم أن كل شعره في التشاؤم والهجاء، وما إن تمعن النظر قليلًا في حديثه عن القيم الأخلاقية (وهي على النقيض تمامًا)، حتى لتجد نفسك أمام واعظ يريد أن يرصد لك مجتمعا بأكمله

(١) ابن خلكان، شَمْسْ اَلدِّينْ أَبُو اَلْعَبَّاسْ أَحْمَدْ بْنْ مُحَمَّدْ بْنْ إِبْرَاهِيمْ بْنْ أَبِي بَكْرْ، ابن خلكان: وفيات الأعيان وأبناء الزمان، مطبعة عيسى البابي الحلبي، مصر، د.ت، الجزء الثالث ص٣٥٨.

(٢) إيليا الحاوي، فن الهجاء وتطوره عند العرب، دار الثقافة، لبنان، ١٩٩٨م، ص٥٧٦.

(٣) الديوان، ج٢، ص ٥٦٧ (البسيط).

يأمل أن تنتشر به تلك الأخلاق الفاضلة، يؤثرك بشعره في أغراضه المتنوعة، فتجد الفضائل متنوعة ومتناثره في ديوانه، بين الكرم، والعفو، والتواضع، والصداقة...

إن من شروط تلك الأخلاق الحميدة: "أن تتم في الحياة الاجتماعية، لأن من ترك مخالطة الناس وتفرد بالأمر دونهم لا تحصل له الفضيلة، ولا معنى للتواضع، والصداقة، والكرم، والإخلاص، ... إلا بالنسبة إلى رجل يعيش مع الناس، ويشاركهم في أحوالهم... والمجتمع الفاضل هو المجتمع العادل، الذي تتحقق فيه جميع الفضائل الإنسانية، في وزن واحد من الاتساق"[1] هكذا كان يتطلع ابن الرومي إلى مثل هذه المجتمعات.

فقد يستخدام الشاعر بعض القيم المتقاربة في المعنى العام، وذلك للتأكيد عليها وإثباتها، من خلال إبداعه في نسج الصور المختلفة لها، إضافة إلى اختلاف الأسلوب، هذا إلى جانب الدلالة والإيحاء، وهذا ديدن ابن الرومي فيما عرض له من قيم، فحين يتعرض لقيمة ما يقلبها على كل وجه ويعرضها بكل صورة ممكنة.

كان ابن الرومي محبًا لذاته، ويسعى للتكسب بشعره من أجل إرضاء نفسه ورغباته، "ولما كان السعي للمحافظة على الذات (التنازع من أجل البقاء) هو الماهية الفعالة لكل شيء. فإن كل الدوافع تنبع منه، وهذه الدوافع في أساسها أنانية. ومن حيث إن العقل لا يطالب بشيء ضد الطبيعة، فهو يطالب بأن يحب كل إنسان نفسه، ويلتمس ما هو مفيد له- أعني ما هو حقاً له-ويرغب في كل ما يؤدي بالإنسان حقاً إلى حالة كمال أعظم، وأخيراً أنه يجب على كل إنسان أن يسعى جاهداً للمحافظة على وجوده قدر استطاعته، وليس ضرورياً أن تكون هذه الرغبات واعية، فقد تكون شهوات لا واعية قائمة في الجسد. وهي تؤلف في

(١) جميل صليبا: المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت- لبنان، ١٩٨٢م، ج٢، ص١٤٩.

جملتها ماهية الإنسان، ونحن نحكم على كل الأشياء على أساس رغباتنا. نحن لا نناضل من أجل أي شيء أو نريده أو نتلمسه ونرغب فيه لأننا نظن أنه خير، بل نحكم على شيء بأنه خير ... لأننا نرغب فيه"[١].

هكذا يحاول ابن الرومي الوصول إلى كثير من الأخلاق التي تخدم ذاته المحب لها، ومن أجل إرضائها كان يتوسل ببث هذه الأخلاق التي ترضي طموحه فيتمناها لنفسه من ناحية ومن ناحية أخرى يدعو إليها لتعم المجتمع، داعيًا إلى الفاضل منها، منكرا لغيرها من الرذائل، وكانت طريقته العامة هنا هي أن يأتي بالصفة وضدها إثباتًا وتأكيدًا لها، وكأننا به يؤمن بقول المتنبي:

ونَـذيمُهُمْ وبِهِـمْ عَرَفْنَـا فَضْـلَهُ وبِضِـدّها تَتَبَـيّنُ الأشْـياءُ[٢]

إن الشعر وثيق الصلة بالمجتمع، وممثلًا لصورة من صور الوعي وخصوصًا في المجتمع الجاهلي الذي أصبح الشاعر فيه عنصر فعال، فقدم تجارب حيَّة لها قيمتها في إرساء القيم وتأصيلها القيم في المجتمع القبلي، التي اختلفت سلبًا وإيجابًا على حسب تقاليد القبيلة وأعرافها، فنال بها الشاعر مكانة عالية داخل القبيلة وخارجها، إذ كانت "إشادة الشعراء بمفاخرهم ومفاخر قبائلهم وما امتازوا به من فضائل إحدى ملامح الرؤية الشعرية عند هؤلاء الجاهليين، فالتغني بهذه الفضائل يمثل دعوة ضمنية على اكتسابها، والتغني بالقيم يمثل دعوة لترسيخها وتعميقها والتنبيه إليها"[٣].

---

(١) وِل ديورَانت = ويليام جيمس ديورَانت: قصة الحضارة، تقديم: الدكتور محيي الدّين صَابر، ترجمة: الدكتور زكي نجيب محمُود وآخرين، دار الجيل، بيروت – لبنان، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م، ج٣٤، ص١٣٩.

(٢) المتنبي، أبو الطيب أحمد بن الحسين،: الديوان، دار بيروت، بيروت، ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م، ص١٢٧.

(٣) حسنى عبد الجليل يوسف: الشعر والمجتمع الجاهلي، مكتبة النهضة المصرية،القاهرة، د.ت، ص٢٢.

وفي ضوء القيم الفاضلة التي آمنوا بها وجدنا أن كل قيمة خيرة وحسنة ضاعفت الانتماء ونال الفرد بها مكانة أسمى وأرفع في قبيلته حتى لنجد أن حاتمًا الطائي، صار مضربًا للمثل في الجود عند العرب قاطبة، فزهت به قبيلته وعلا ذكرها ومدحوه، قال زياد الأعجم:

إن السماحةَ والمروءةَ والندى في قبةٍ ضربتْ على ابن الحشرجِ [1]

إن القيم الأخلاقية في الشعر الجاهلي من أهم الأسس التي اعتمد عليها الشعراء في شعرهم، وذلك لما كان لهم من شأن عظيم، حيث كانت تقام الأسواق من أجل إنشاد الشعر والتفاخر به، كما تعددت الفضائل الإنسانية في الشعر العربي، مثل مفهوم الكرم والجود وهو أصل في العرب والحسب والأنساب والأمانة والصدق والشجاعة ... وكانت القيمة الأكثر تفاخرًا بين الجاهليين هي المروءة التي تقوم على الشجاعة والكرم، وهكذا "تتمثل المثل الجاهلية العليا في المروءة، وقد فسرت المروءة بأنها كمال الرجولية. ومن المروءة الحلم والصبر، والعفو عند المقدرة، وقرى الضيف، وإغاثة الملهوف، ونصرة الجار، وحماية الضعيف"[2].

وهكذا اهتم العرب بمكارم الأخلاق، وذلك لما أشيع بينهم من ثقافة الانتماء للقبيلة، إذ "كانت الفضيلة العليا لديهم تتمثل في (المروءة) التي تقوم على الشجاعة والكرم ، ومن المروءة الحلم والصبر والعفو عند

---

(١) أبو الفرج الأصفهاني، أَبُو اَلْفَرَجْ عَلِي بْنْ اَلْحُسَيْنْ بْنْ مُحَمَّدْ بْنْ أَحْمَدْ بْنْ اَلْهَيْثَمْ اَلْمَرْوَانِيِّ اَلْأُمَوِيِّ اَلْقُرَشِيِّ، أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني ج١٢، دار صادر بيروت، تحقيق: إحسان عباس، ط١، ٢٠٠٢م، ص٢٤.

(٢) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، مطبعة المجمع العلمي، العراق، ١٩٥٧م، ج٦، ص٣٢٦.

المقدرة، وقرى الضيف، وإغاثة الملهوف، ونصرة الجار، وحماية الضعيف..."[١]

ومع توالي العصور بعد الجاهلي يتسع استخدام الشعراء للأخلاق بكثرة داخل أشعارهم بطريقة أوضح وأوسع، إذ جاء الإسلام ليحرّر العرب ويوحّد القبائل العربيّة تحت لواء الدّين ناهيًا عن العصبيّة القبليّة وداعيًا لتحقيق العدالة وفق معطيات جديدة هي التّقوى والإيمان، وأصبحت الأخلاق جزءًا من الدين القويم يدين بها الإنسان لله وحده وليس إرضاء للقبيلة، يقول ﷺ:"إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"[٢]، وقوله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ ﴾ [٣]، فخصَّ الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم من كريم الطباع، ومحاسن الأخلاق، من الحياء، والكرم، والصفح، وحسن العهد..."[٤] ، وتلك القيم هي التي أولاها ابن الرومي اهتمامًا موسعًا. وفي العصر الأموي عادت العصبيات القبلية لتحيا من جديد بتأييد من السلطة القائمة وتشجيع منها وغدا الشعراء ينطقون باسم أحزابهم مدافعين عنها، وبرزت النقائض بكلّ ما فيها من هجاء تستحضر ما كان سعى الإسلام لطمسه من عصبيات قبلية. أمّا في العصر العباسي فقد اشتهر فيه شعر الزهد والدّعوة للأخلاق الفاضلة مقابل تيار اللهو والمجون والزندقة الذي انغمس فيه الكثير من شعراء هذا العصر.

---

(١) إيمان عبد المؤمن سعد الدين: الأخلاق في الإسلام –النظرية والتطبيق، مكتبة الرشد، د.ت،ص٥٨.

(٢) انظرالحافظ الخطيب البغدادي: الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، تحقيق محمود الطحان، مكتبة المعارف– الرياض، ١٤٠٤ه– ١٩٨٣م، ص٩٣.محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله / الألباني، المحقق: الألباني، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، مكتبة الدليل، ١٩٩٤م ــ ١٤١٤هــ، ص٢٠٧.

(٣) سورة: القلم، آية/٤.

(٤) الأبشيهي، شهاب الدين بن محمد الأبشيهي: المستطرف في كل فن مستظرف، تحقيق: محمد خير طعمة الحلبي، ط٥، ٢٠٠٨م، دار المعرفة، بيروت– لبنان، ص١٧٢.

يؤكد "ابن رشيق" على دور الشعر في العودة إلى تلك القيم وترسيخها في المجتمع، قائلًا: "كان الكلام كله منثورًا، فاحتاجت العرب إلى الغناء بمكارم أخلاقها، وطيب أعراقها وذكر أيامها الصالحة، وأوطانها النازحة، وفرسانها الأنجاد، وسمائحها الأجواد لتهز أنفسها إلى الكرم"(١).

كما أن الأخلاق لها آثار عظيمة في حياة الأمم والمجتمعات، لأن بها ارتقاء الشعوب بل وسقوطها، وفي ذلك يقول شوقي :

إنما الأممُ الأخلاقُ ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهُم ذهبُوا(٢)

وبوجه عام فالأخلاق "صبغة لا تتحوّل وحقيقة لا تتغيّر ولا تتبدّل، فالصدق في معناه الإسلامي هو الصدق لا تتصرّف في معناه المصالح والمنافع ولا تتلاعب به الأهواء والمطامع والوفاء هو الوفاء، والعدل والإحسان والرفق والعفو عند القادر، كل أولئك من الفضائل الثابتة ثبوت الحقائق لا تنال منها تصاريف الأيام ولا يتصوّر أن يأتي على الناس يوم تجمع فيه عقول العقلاء على أن الصدق مثلًا رذيلة تصِمُ صاحبها بالذم..."(٣)

---

(١) ابن رشيق القيرواني، أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق، وتعليق/ محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الجيل، ط٥، ١٤٠١هـ ١٩٨١م، ٢٠/١.

(٢) أحمد شوقي: الديوان، دار صادر، بيروت، ٢٥٩/١ .

(٣) محمّد بن بشير بن عمر الإبراهيمي: آثَارُ الإِمَام مُحَمَّد البَشِير الإِبْرَاهِيمِي، جمع وتقديم: نجله الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، الطبعة: الأولى، ١٩٩٧م، ج٤، ص٢٢٢.

وأصبح التفاخر بالأخلاق الحسنة هو السائد، فأصبح المجتمع متمسكًا بفضائل الأخلاق مندفًا بها من أجل الحياة الفاضلة التي يأملها الفرد والمجتمع.

تعد الأخلاق هي الدعامة القوية والمعيار الأساسي لنجاح الأمم وبقائها، كما أنها أساس الحضارة وعنوان الشعوب في مختلف العصور والأزمان.

وهكذا فالأخلاق هي القيم الراسخة التي تنم عنها الأفعال، فإما أن تكون هذه الأفعال محمودة، فيكون الخلق حسنًا، أو تكون مذمومة فيكون الخلق سيئًا، وهكذا "فالخلق ينقسم إلى فضيلة هى مبدأ لما هو كمال، ورذيلة هى مبدأ لما هو نقصان، وقد يطلق على الفضيلة اسم القيمة الإيجابية، وعلى الرذيلة اسم القيمة السلبية، والقيمة بوجه عام تتجه نحو تحقيقها حسب قواعد معينة دقيقة، ومن هنا قيل إن علم الأخلاق من العلوم المعيارية، وعلامة الفضيلة عند العرب، شأنها شأن كل فكر أخلاقى آخر، هى استحقاق المدح، مثلما نستدل على الرذيلة بما تثيره من لوم وذم. فالمدح فى الحقيقة هو وصف الموصوف بأخلاق يحمد صاحبها عليها، ويكون نعتا حميداً. وقد امتدح العرب فضائل الجود والسخاء والكرم والإيثار، وذمّوا الرذائل التى تقابلها"[1].

إن "الخُلُقُ: ملكة نفسانية تصدر عَنْهَا الْأَفْعَال النفسانية بسهولة من غير روية، وَقيل: هُوَ اسْم جَامع للقوى المدركة بالبصيرة، وَتجْعَل تَارَة للقوى الغريزية، وَتارَة للحالة المكتسبة الَّتِي بهَا يصير الْإِنْسَان خليقا أَن

(١) موسوعة المفاهيم الإسلامية العامة، (مجموعة من المؤلفين)، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – مصر، وزارة الأوقاف المصرية، ص٥٠٣.

يفعل شَيْئا دون شَيْء"[١]، إن "القيمة حاضرة في سلوك الإنسان، وهي التي تحدد اتجاه هذا السلوك وترسم مقوماته، وتعين بنياته..."[٢]

يربط "ابن خلدون" بين الانهيار الأخلاقي وسقوط حضارات الكثير من الأمم، وعلى العكس فإن من أسباب بقائها وقوتها تمتعها بالأخلاق ومكارمها، إذ يقول "إذا تأذن الله بانقراض الملك من أمة حملهم على ارتكاب المذمومات وانتحال الرذائل وسلوك طرقها، فتفقد الفضائل السياسية منهم جملة، ولا تزال في انتقاص إلى أن يخرج الملك من أيديهم ويتبدل به سواهم"[٣].

والأخلاق تدعم الصواب والإيجابيات في مقابل الخطأ والسلبيات، فهي بذلك تقوّم تلك السلبيات والأخطاء عن طريق توطيد ما يجب تحقيقه في مجتمع حضاري قائم على الأخلاق الحميدة التي ترتقي بنا إلى الأفضل، وهي بذلك "لم تعد بحث عن الفضائل المبعثرة في الأنفس دون الآفاق، بل هي سبيل إنقاذ ما ينبغي أن يكون"[٤].

---

(١) السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي:معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم، المحقق: أ. د محمد إبراهيم عبادة الناشر: مكتبة الآداب – القاهرة / مصر الطبعة: الأولى، ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٤ م، ص١٩٧.

(٢) عادل العوا: القيمة الأخلاقية، مطبعة جامعة دمشق، ١٩٦٠م، ص٣٧.

(٣) ابن خلدون، أَبُو زَيْدٍ وَلِيُّ الدِّيْنِ عَبْدُ الرَّحْمٰنِ بن مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن الحَسَن، ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، دار إحياء التراث العربي، لبنان– بيروت، الطبعة الرابعة، د.ت، ص١٤٤.

(٤) محمد علي العجيلي: الأخلاق عند فرويد،ص٩،١٠. أبو حاتم بن حِبّان البُستي: نزهة العقلاء ونزهة العقلاء، تحقيق/ محمد محيي الدين، محمد عبد الرازق حمزة، محمد حامد الفقي، دار الكتب العلمية، د.ت، ص٢٦.

وهكذا "احتفى الشّعر بالأخلاق، وسعى إلى تجسيد القيم الأخلاقيّة التي تنشأ عن سلوك النّاس ومواقفهم بُغية تكريسها وترسيخها في نفوس الأجيال. لذلك شغلت هذه القضيّة موضوعات الشّعر العربيّ منذ بدايته".

الأخلاق في شعر ابن الرومي:

إن الأخلاق "ضرورة اجتماعية، لا يستغني عنها مجتمع من المجتمعات، ومتى فقدت الأخلاق التي هي الوسيط الذي لابد منه لانسجام الإنسان مع أخيه الإنسان، تفكك أفراد المجتمع، وتصارعوا، وتناهبوا مصالحهم، ثم أدى بهم ذلك إلى الانهيار، ثم إلى الدمار"[1].

وهذه القيم الأخلاقية يعرضها لنا الشاعر بطرق عديدة ومختلفة، تثير الفكر وتشد الانتباه في صور خيالية تجعلنا نقف أمامها معجبين بأسلوبه وبطريقة عرضها.

لقد رأى ابن الرومي أن هناك الكثير من القيم الأخلاقية[2] التي يحاول إحيائها من خلال تصويرها وتجسيدها في شعره، فيرصد الكثير من تلك القيم التي يرجو بها حياة كريمة له ولمجتمعه، لذلك فإن "الإعجاب بالفضيلة وبمن يتحلى بها والمشاركة الفعالة في تكييف المعاني وبلورة المثل العليا، والدعوة الصريحة إلى الالتزام بها

(١) موسوعة الأخلاق الإسلامية إعداد: مجموعة من الباحثين بإشراف الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف، ربيع الأول ١٤٣٣ هـ ، ج١، ص١٥. موسوعة المفاهيم الإسلامية العامة، (مجموعة من المؤلفين: ا.د/منى أبو زيد)، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – مصر، ص٥٠٣.

(٢) جميل صليبا: المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت– لبنان، ١٩٨٢م،ج٢، ص١٤٨.

واعتناقها، وتوجيه الإنسان نحو التقيد بهذه القيم في أخلاقه وتصرفاته، وعلاقاته وارتباطاته، هذه الصورة كانت هدفًا أساسيًا في إصلاح المجتمع."[١]، الذي كان يأمله ابن الرومي.

ورغم ذلك فإن الشّعر أخلاقي، لا بما يُقدّم من مواعظ، وإنّما بجمالياته التي تقتحم أغوار النّفس البشريّة وتُضفي عليها المزيد من الإشراق، فالشّاعر متعدّد الأعمال، فهو مصلح اجتماعيّ تارة، وثائر مغامر باستمرار، وكلّما كان الإشراق في الشّعر أكثر كلّما أشرقت نفس المتلقّي أكثر، ولذلك جماليّة الشّعر بمفردها عمل أخلاقيّ.

كما أن الأدب المثالي يتصل بأنبل العواطف الحيوية كالإخلاص والتّحاب والعدالة العامة والوحدة الإنسانيّة، فالصلة وثيقة بين الأدب والأخلاق من حيث الغاية، لأنّ العواطف الفاضلة هي من أساسيات الأخلاق الكريمة، والأسس الخلقيّة تحمي الأدب وتقيه من السّقوط بحيث تحتفظ له بمستوى عال نبيل، وكلاهما يعرض للخير بهدف تسليط الضوء عليه وتقويته، ويعرض للشرّ بغية معالجته[٢].

ومن أمثلة القيم الأخلاقية:

إن **"الكرم"**[٣] من القيم الأخلاقية التي أولاها ابن الرومي اهتمامًا كبيرًا، ويعد من الأخلاق العريقة التي عرفها أصحاب النفوس العظيمة

---

(١) نوري حمودي القيس، الأديب والالتزام، دار الحرية، بغداد ١٤٠٠هـ - ١٩٧٩م، ص٨٢.

(٢) انظر مقال للدكتورة فاطمة مهدي البزال: المنظومة الأخلاقية وصدى تجلياتها في الشعر العربي، مجلة العربي، العدد(٧٧٨) سبتمبر، صفر،١٤٤٥-٢٠٢٣م.

(٣) الكرم: هو "كثرة العطاء من غير سؤال... والإعطاء بسهولة ...، وتعد هذه الفضيلة من أمهات فضائل النفس، لأنها الفضيلة التي ينزل بها صاحب المال عن ماله للفقير المحتاج ..." انظر: أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري: الفروق اللغوية، ص١٦٧. أبو بكرعبدالقاهرعلي بن محمد الشريف الجرجاني: التعريفات، لبنان- بيروت، ١٩٨٥م، ص١٨٤. بدوي بطانة: معلقات العرب، دراسة نقدية تاريخية في عيون الشعر العربي، دار الثقافة، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٧٤م، ص٢٧٨.

منذ القدم، فطبقوها في تعاملهم ومدحوا بها ساداتهم وجعلوها دليل الرفعة والفخر وغاية المجد ، يقول ﷺ: " إنَّ اللهَ كريمٌ يُحبُّ الكُرَماءَ، جوادٌ يُحبُّ الجَوَدَةَ ، يُحبُّ معاليَ الأخلاقِ ، و يكرَهُ سَفْسافَها"(١).

إن "الكريم هو من يوصل النفع بلا عوض، فالكرم هو إفادة ما ينبغي لا لغرض"(٢)، ويؤكد ابن الرومي على هذا المعنى وأن لا غرض لهذا الرجل من جرَّاء بذله وجوده، بل هي سجية من سجاياه، يقول:

يُعْطي الرَّغائِبَ جُوداً مِن طَبيعَتِهِ لاَ كالْمُتاجِر بالْمَعْرُوفِ أحْياناً
لا يَسْتثيبُ بِبَذْلِ العُرْفِ مَحْمَدةٌ ولا تَراه بِما أسْداهُ مَنَّانَا(٣)

ويقول أيضاً:

لَكَ الرَّأيَ والجُودُ اللّذانِ كِلاهُما زَعِيمٌ بِكَشْف المُطْبِقَاتِ الكَوَارِبِ
ومَا زِلْتَ ذَا ضَوْءٍ وَنَوْءٍ لِمُجْدِبٍ وحَيْرانَ حتىْ قِيلَ: بَعْضُ الكَوَاكِب
تُعِيثَ وتَهدِي عِنْد جَدْب وحَيْرةُ بِمُحْتَفَلٍ ثَرٍ وأَزْهَرَ ثَاقِبِ(٤)

فهذا الرجل إلى جانب وصفه بالكرم، هناك صفة أخرى ملصقة به ألا وهي صواب الرأي، فكما أن الكرم يدفع من يطلبه إلى تخطي المصاعب والأزمات فإن سداد الرأي الصحيح يدفع إلى التوجه السليم،

---

(١) الألباني، محمد ناصر الدين الألباني المحقق: صحيح الجامع الصغير وزيادته، ترجمة :زهير الشاويش، الراوي :سعد بن أبي وقاص، المكتب، الإسلامي – بيروت، الطبعة الثالثة،١٤٠٨هـ، ص١٨٠٠ .انظر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغداداي أبو بكر: الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، تحقيق دمحمود الطحان، مكتبة المعارف، الرياض، ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م، ص٩٢.

(٢) الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجُرْجَانِيّ: التعريفات، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٥م، ص١٩٣.

(٣) الديوان، ج ٦، ص ٢٥٢٧ (البسيط).

(٤) الديوان، ج١، ص ٢٢٠، (الطويل)، الغوث: أي عطاء واسع لا يقتصر علي فئة دون فئة بل عطاء بلا حدود. أزهر ثاقب: رأي سديد ثاقب صادر عن حكمة.

وعلى ذلك فكلاهما يعينان صاحبهم على تخطي مصاعب الحياة ومتاعبها، وهكذا أصبح هذا الممدوح شبيه بالكوكب الذي يهدي الحيران إلى الطريق الصحيح والذي ينقذه من الهلاك، ولذلك فهو يملك صفتين حميدتين قلَّ ما اتصفا بهما إنسان وهما الكرم وسداد الرأي، فعطاء بلا حدود وبلا توقف، ورأي سديد ثاقب صادر عن بصيرة وحكمة.

قال بعض الحكماء: "أصل المحاسن كلها الكرم، وأصل الكرم نزاهة النفس عن الحرام، وسخاؤها بما يملك على الخاص والعام، وجميع خصال الخير من فروعه"(١)، وفي المعني السابق يقول:

جُدْتمَ فَلا جُودَ إلاّ دُونَ جُودِكُم وَنِلْتُم من عَظِيم الجُودِ ما شَطَنا
فَمْن يُناضِلُكمْ أوَ من يُطاوِلكم أو مَنْ يوازِنُكم حِلْمًا وإنْ وزنَا؟
أَنتْم غُيوثُ نَدى تُرجى وأُسْدُ وَغىً تُخْشى، وأَقْمارُ لَيلٍ تَكِشفُ الدُّجُنا(٢)

إنهم فاقوا بجودهم كل مثال، هم الغيوث التي تُرجي لتحيا بها البلاد، وهم كذلك كالأسود التى تُخشي لقوتها وهيبتها، والأقمار التي يهتدي بها السائرون ليلاً.

أما هذا الرجل فلا يدانيه أحد في جوده، يقول:

جَوَادٌ يُنادي الهَارِبِينَ عَطَاؤُه: إلى أيْنَ منِّي؟ لاَتَ حِينَ مَنَاصِ
عَصى اللهَ في الإسْرافِ غَيْرَ مُعانِدٍ وَلَيْسَت مَعَاصِي مَاجِدٍ بمَعاصي
فَضَلْتَ أَخَاكَ الغَيْثَ بِالْعِلمِ والْحِجى وحَاصَصْتَه في الجُودِ أيّ حِصَاصِ(٣)

جعل الشاعر هذا الرجل ينادي الهاربين، إلى أين منى؟ ثم يجيب لات حين مناص، أي لا مجال لكم فمهما ذهبتم فمصيركم إليّ، وهكذا

(١) الأبشيهي: المستطرف من كل علم مستظرف، ص١٣١،١٣٢.
(٢) الديوان، ج٦، ص ٢٥٦٣ (البسيط).
(٣) الديوان، ج٤، ص ١٣٦٤ (الطويل).

جعل شاعرنا العطاء إنسانًا يطلب، فهو المحتاج إليهم، وهذا قد يشير إلى إسراف هذا الرجل مما قد يخيل إلى نفس القاريء الإسراف في العطاء، بل وقد يوقعه فى معصية الخالق بهذا الإسراف فالاعتدال في كل شيء مطلوب لذلك قال (عصى الله في الإسراف غير معاند) هذا يعني أن إسرافه في العطاء ليس لمعصية الله، ولكن إسرافه هذا بسبب حبه للعطاء والإنفاق في سبيل الله، كما تجري عادة الشعراء أن يشبهوا الممدوح في كرمه بالغيث، ولكننا نجد ابن الرومي يجعله أخًا له بل ويفوقه بالعلم والرأي السديد والجود والكرم، مما يؤكد لنا مدى أسطورية هذا الرجل المعطاء.

لقد "جعل الله سبحانه وتعالى في المال حقوقًا، وهي نوعان: حقوق موظفة وحقوق ثانية، أما الموظفة: كالزكاة والنفقات الواجبة على من تلزمه نفقته، والثانية كحق الضيف ومكافأة المهدي"[1]، فلننظر لهذا الرجل المعطاء الذي لا يودع ماله في خزائن بل أنه يؤمن بالمثل القائل أن" المال وُجِدَ ليُنفق لا ليُدَّخر"، يقول:

أمْوَالُه في رِقَابِ النّاسِ مِنْ مِنَنٍ ... لاَ فِي الخَزَائِن مِنْ عَيْنٍ وَمِنْ نَشَبِ[2]
أحْمى فَأرْعَى وآوي مَنْ يُطيفُ به ... في حيثُ يأمن من خوفٍ ومن سَغَبِ
فَضَيفُهُ في ربيعٍ طَولَ مدَّتِه ... وجَارُه كُلّ حِينٍ مِنه في رَجَبِ
كالبَحرِ مُنفجِراً مِن كلِّ منفجرٍ ... والغيثِ منسِكباً مِن كُلّ منسكَب
لَولاَ عَجائِبُ لطفِ الله ما نَبَتُتْ ... تَلكَ الفَضَائِلُ فِي لحْمٍ وفي عَصَبِ
تُعطي وَوَجْهَكَ مَبْسَوطٌ يُصانِعُنا ... كَأَنّ كَفَّك لَم تُفْضل ولم تَهَبِ

(١) ابن قيم الجوزية، أبو عبدالله محمد بن أبي بكر بن أيوب بن قيم الجوزية: الروح، تحقيق محمد أجمل أيوب، دار عالم الفوائد، جدة، د.ت، ص٧٠١.

(٢) عين: الدينانير والذهب، نشب: المال.

يـا مَـن إذاَ مـا سَـألَنْاه اسـتهَلّ لنَـا وإنْ سَـكتْنا تَجَنّـي عِلّـة الطَلَـب [1]

إن ديار هذا الرجل مأوى لكل من يقصدها، بها يأمن الخائف وبها يشبع الجائع، فعطاؤه وفير وجوده وكرمه لا حدود له، وإذا ما نظرنا إلى البيت الثالث نجده قد كنى بشهر ربيع عن الخيرات والمسرات، أما شهر رجب فكنى به عن الإعظام والإجلال، فهما من الأشهر الحرم التي تعظمها العرب، وإلى جانب ذلك فإن هذا الرجل كالبحر والمطر المستمر في العطاء والكرم والجود، كما أنه يعطي وهو مبسوط الوجه ضاحك الثغر، وهو يعطي بلا حدود فما إن سأله سائل حتى انهال عليه العطاء والجود، وإذا لم يسأله أحد تصنع العلل وأخذ في استنباطها حتى يعطي، هكذا يكون الجواد الكريم الذي لا ينقص رفده.

وفي المعني السابق يقول:

يا مَنْ غَدا مَالُه فِي النّاس مُشْتَرَكا ومَـنْ تَوَحّـد بـالمعروفِ وانْفَـردَا
ومَـنْ تَحلـى مِـن الآدابِ أحْسـنها فمَـا يَـرى أَحـدٌ فـي ظَرْفِـه أحَـدا
يـاأكرم النـاس، دون النـاس كُلهـمُ ولـيس ذلـك مـن قيلـي بإبعـاد [2]

فهذا ماله ليس لـه ولا يملك فيـه شـيء، والنـاس شركاء لـه فيـه، إلا أنـه ينفرد عنهم بالمعروف والأخلاق الحسنة، وكأنها موقوفة عليه دون غيره.

ويقول:

هُو الرَّجل المَشَروِك في جُلّ مالِهِ ولكِنّه بِالخيْـرِ والحَمْـدِ مُفْرَدَ[3]

(١) الديوان، ج١، ص ١٩٣، ١٩٤ (البسيط).
(٢) الديوان، ج٢، ص ٦٤٧ (البسيط).
(٣) الديوان، ج٢، ص ٥٨٩ (البسيط).

فقد تعوَّد هذا الرجل العطاء والجود بسخاء، لذلك فهو لا يبقي ماله في يده، تماما كالمعنى السابق، وكأنه لم يُخلق إلا للعطاء والجود، لذلك فقد خُلقت كلتا يديه يمينا كناية عن كثرة العطاء والجود، يقول:

كِلتْا يَدَيْك يَمِيَن لا شِمَالَ لَها مَخْلُوقَتانِ لأمْجَادٍ وإنْجَادِ[1]

أما هذا الآخر يسبق عطاؤه وعده، يقول الشاعر:

لَــهُ مَوَاعِيــدُ بــالخَيرْاتِ نَــاجِزَةٌ لكنّــه يَسْــبِقُ المِيعــادَ بِالصَّــفَدِ
يُعطيكَ حـقّ غَـدٍ فـي اليـومِ مُبتَـدئاً وليْس يَجْهلُ بَعد اليومِ حقّ غَدِ[2]

وعلى ذلك فهو يعطي اليوم وفي نفس الوقت يعطي حق الغد وكأنه يستعجل الأيام ليعطي ويجود، فهو يريد أن يعطي الجميع كي لا يجد محتاجًا، بل يريد أن يكون الجميع في وفرة من العيش.

ويلح الشاعر على المعنى فى مواضع متفرقة، إذ يقول:

يـا أيّهـا السَّـيِّدُ الّـذي ظَهُـرَتْ بِــه مــنَ المُنْكَــرَاتِ بَغْــدَادُ
ومَنْ غَدا وهَو لِلْخَبائِثِ تَرّاكٌ كٌ وللطَّيِّبــــاتِ أَخَّــــاذُ
مَبَـارِكٌ فـي يَدَيْـه للمَـالِ إهـلا كٌ وللهَــــالِكينَ إنقْــــاذُ[3]

هذا الرجل بذَّال للمال، فالمال في يديه يُهلك من أجل إنقاذ الهالكين المحتاجين، هذا إلى جانب أخلاقه الحميدة الطيبة التي ترفض ما دون ذلك من الخبائث والمنكرات.

(١) الديوان، ج٢، ص ٥٨٩ (الطويل).
(٢) الديوان، ج٢، ص ٧٧٨ (البسيط).
(٣) الديوان، ج٢، ص ٨١٦ (المشرح)

إن الكرم طبع قد طبع عليه الإنسان، فالعطاء يصدر منه عفويًا طبيعيًا بالسليقة دون تكلف، هكذا قالها ابن الرومي:

ليس الكَرِيُم مَنِ اشْتَرَيَ بِنوالِه حَمدَ الرِّجَالِ وإنْ أنَالَ جَزيلاَ
لكنه مَن جَاد جُودَ طبيعةٍ ورأى الفِعالَ من الفِعالِ جَميلاَ[1]

وفى المعنى السابق يقول:

ليس الكريم الذي يعطي عطيتَهُ على الثناء وإن أغلى به الثمنا
بل الكريم الذي يعطي عطِيته لغير شيء سوى استحسانه الحسنا
لا يستثيب ببذلِ العُرْفِ محمْدةً ولا يَمُنُّ إذا ما قَلَّد المنِنا
حتى لتحسب أن الله أجبَرَهُ على السماحِ ولم يَخْلُقْهُ ممْتَحَنا[2]

يصارع الشاعر نفسه بين ضدين (الكرم- البخل)، بين أن يجود بالقليل الذي يملكه أم يمسك على نفسه لاحتياجه، ولكنه بين هذا وذاك يختار أن يجود بما يملكه إلى أن يصبح مفتقرًا إلى الطعام، وهذا قمة النبل عنده أن يُعطي المحتاج المال مع شدة احتياجه إليه، يقول مستغيثًا بالله تعالى:

قِنِي يا إلهَي شُحَّ نَفسِي فإنَّنيِ أرَى الجُودَ لي حَظّا وشيمَتيَ البُخْلُ
وما ذاكَ أنَي لا أجُودُ بِنائِلٍ ولكِنّ لِي ما لا يُحصِّنهُ قُفلُ
وقد كان حقُّ الجودِ بذليِ ذخائِريِ إلي أنَ يَراني الله يُعوِزُني الأكَلُ
ولكنّ نفسي آثرت نُبْلَ مالها وما حيثُ نبلُ المال ما يوجد النبلُ[3]

(١) الديوان، ج٥، ص ٢٠٣٨ (الكامل).
(٢) الديوان، ج٦، ص ٢٥٣٦ (البسيط).
(٣) الديوان ج٥، ص ٢٠٤٦، ٢٠٤٧ (الطويل).

وقد يلجأ ابن الرومي إلى الثنائيات الضدية لتوضيح صوره من خلال إبراز صفة الكرم والحث عليها، قائلا:

والخلدُ أن تُلْفَى تجودُ وتعتلي والموت أن تُلْفَى وأنت جماد
فمتي بذلك فللبقاء تَنَفُّسٌ ومتى كنزت فللبقاء نفاذ
يبقي الفتى بعد الممات بفعله أبدا، ويَدْثُرُ يَذْبُلُ ونَضَادُ
فاشدُدْ بنيتك الجميلةِ قبضةً فَلَيُنْجَزَنَّ وعيشك الميعاد
واعلم بأن الله في ملكوته لم يخل منه لمحسنٍ مرصاد(١)

ولإظهار قيمة الكرم بصورة أكثر إيضاحًا استخدم ابن الرومي بعض التضادات (الخلد/الموت)، (بذلت/كنزت)، (تنفس/نفاذ)، فأصلت هذه التضادات بذلك معنى الكرم في الأذهان.

يفتش ابن الرومي عن مثل أعلى يُنشده ويعيد إليه صفو الحياة، فما إن وجده حتى أضفى عليه صفة الكمال، التي يرجوها ويأمل أن تسود العصر بل ويرفعه إلى مرتبة الخلود، ليصبح المثل الأعلى الذي لا مثيل له، ثم يدعو الجميع إلى الاحتذاء به واتباع طريقه، يقول:

شَهِدْتُ لَقَد لَهَوْتَ وأَنتَ عَفٌّ مَصَونَ الدِّينِ، مَبْذُولُ العَطَاءِ
كَمُلتَ فَلَسْتُ أَسْأَلُ فِيكَ شَيئًا يَزِيدُ كَه المَلِيكُ سِوى البَقَاءِ(٢)

هذا المثال الذي ينشده الشاعر، قد كمُلت فيه الصفات الحميدة، المتمثلة في الكرم، فعطاءه بلا انتهاء، ولم ينقصه إلا البقاء والخلود.

وقد يتجه الشاعر إلى ذكر ما يضاد قيمة الكرم، وذلك من أجل التأكيد والترغيب في هذا الخلق الحميد، فنجده يذكر البخل وينفر

(١) الديوان ، ج٢، ص ٧١٩ (الكامل).
(٢) الديوان، ج١، ص ٥٦، (الوافر).

معاصريه من هذا الخلق السيء، فالبخل: هو "المنع من مال نفسه... وقال حكيم: البخل محو صفات الإنسانية وإثبات عادات الحيوانية"[1]، قال النبي ﷺ: "البخل جامع لمساوي القلوب، وهو زمام يُقاد به إلى كل سوء"[2]، وهو بذلك صفة ذميمة وعادة سيئة يأمل ابن الرومي ألا يقبل عليها الناس وأن يتحلى كل منهم بمكارم الأخلاق، وأن يسود الكرم وما تبعه من الأخلاق الحميدة، والبخل من الظواهر الاجتماعية التي عاينها ابن الرومي في عصره وذمها وهجا أصحابها يقول:

إذا غَمرَ المالُ البخيلَ وجَدْتهُ يزيدُ به يُبسًا وإن ظن يَرْطَبُ
ولـيس عجبًـا ذاكَ منـهُ فإنَّـهُ إذا غَمَر الماءُ الحجارَةَ تَصْلُبُ[3]

ويبدع ابن الرومي في وصفه للبخيل، تلك الصفة التي يريد أن ينفر منها، فكلما زاد المال في يد هذا الرجل كلما زاد بخله، فهو بذلك يزداد يبسًا وصلابة وقسوة قلب على الآخرين، فلا ينفق منه عليهم بل يزداد بخلاً وشحًا، بينما هو سعيد قلبه رطب بزيادة هذا المال، يقول تعالي: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾﴾[4]

، ولا عجب في ذلك فإن الحجر يزداد صلابة عندما تغمره الماء، تمامًا مثل البخيل الذي يغمره المال ليزيد صلابة وقسوة بسبب بخله.

(١) الجرجاني: التعريفات، ص٢٣، ٢٤.
(٢) المستطرف من كل علم مستظرف، ص٢٤٩.
(٣) الديوان، ج١، ص ١٥١ (الطويل).
(٤) سورة آل عمران: أية ١٨٠

وقد يذم المال، إذا لم يُنفق منه على المحتاج، ترغيبًا منه على الجود والكرم، يقول:

المالُ يُكْسِبُ ربَّهُ ما لمْ يَفِضْ فـي الرَّاغِبينَ إليه سوء ثَنَاءِ
كالمـــاءِ تأسِـــنُ بِئْـــرُهُ إلا إذا خَـبَطَ السُّقَاةُ جِمَامـةُ بِـدِلاءِ[1]

يأخذ ابن الرومي بأيدينا إلى صورة أخرى لهذا البخيل، قائلًا: إن المال الذي يجمعه الإنسان ويكتنزه طالما لا ينفق منه على المحتاج؛ لا يزيده إلا سوءًا، فيشبهه الشاعر بماء البئر الذي تتغير رائحته وتصبح كريهة إذا لم يؤخذ منه السقاة، وهذه الصورة من البخل من أقبح صوره وأشدها.

والاعتدال في كل الأمور حسن، فيجب عدم التبذير فلا الإفراط ولا الحرص، وإنما التوازن والاعتدال هي السمة التي بها يعيش الإنسان في سلام، يقول:

يَجودُ فَيعطي ما له في حقوقه على منهجٍ بين السبِيلَيْن عَادِلِ[2]

يحث ابن الرومي إلى الإنفاق، وأن المال وجد للإنفاق لا للكنز، لذلك يأتي بصورة كاريكاتورية تصور هؤلاء القوم الذين ينفقون من مالهم على المحتاج، والذين يرون أن من ينصحهم بغير ذلك ما هو إلا ضلال وغش، لذلك يسخطون عليه لأنه يدعوهم إلى خلق ذميم وهو البخل، يقول:

قَوْمٌ يَرَوْنَ النُّصْحَ في أَمْوالِهم غِشًّا، فَقَدْ سَخِطُوا عَلى النُّصّاحِ
يُعطُـون عفـوًا كلمـا أعفيـتَهم ويُلِـــحُّ نـــائلهم علـــى الإلحـــاح

(١) الديوان، ج١، ص ٦٠ (الكامل)
(٢) الديوان، ج٥، ص ٢٠١٦ (الطويل).

وعطـاؤُهم فـوق العطـاء لأنهـم يُعطـون كسْـب منَاصـلٍ ورمـاح
وكأن مَنْ أعْطَاك كسْبَ سلاحه أعْطَـاك مُهجتـه بغيـر سـلاح[1]

إن الإنفـاق علـى المحتـاجين حمايـة للمجتمـع وعـلاج للأمـراض والظواهر الاجتماعية السلبية، وكذلك تزكية لأموالهم ونماء لها.

كما أن **اللُّؤْم**، ضد الكرم والفضل، واللئيم الشحيح النفس، السيئ الخلق، وقال البعض إن" كل لئيم بخيل، وليس كل بخيل لئيم"، يقال: " إن لكل شيء حياة وموتًا، وإن مما يحيي الكرم مواصلة الكرماء، وإن مما يحيي اللؤم معاشرة اللئام... فالكريم يلين إذا استعطف، واللئيم يقسو إذا أُلطف" [2].

يهجو ابن الرومي شخصًا يتصنع الكرم، أملًا منه في إثبات تلك القيمة، قائلاً:

وفـي أبـي سـعد لـؤمٌ وإن قَـرى وتبسـمْ
يَقْـرِي الضـيوفَ ولكـنْ يَقْـرى الضـيوفَ وينـدمْ
ولـيس ينـدُم سِـرًا لكنَّـهُ يَـتَكَلَّمْ
فمـنَ أراد قِـراه والشـتمَ فلْيتقَـدَّمْ
إيـاَك إيـاَك أنْ زُرْ تـهُ تُلِـمُّ بمطْعَـم
إن الحـلالَ لديـه علـى الضـيوفِ مُحَـرَّم
يـا رُبَّ شُـهْد أكلْنـا عنـده كـان علقـم
أضـافنا فأكلنـا فـنحن نُهْجَـي ونشـتم
ولـم يكـنْ مِـنْ كـريم لكنَّـه يتكـرم[3]

---

(١) الديوان، ج٢، ص ٥٥٤ (الكامل)

(٢) الحافظ أبي حاتم محمد بن حِبان البُستي: روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، تحقيق محمد حامد الفقي، مكتبة السنة المحمدية، د.ت، ص١٧٣.

(٣) الديوان، ج٦، ص ٢٣٨٥، ٢٣٨٦ (المجتث)، انظر الديوان: ج٢، ص٣٨٨، ج٣، ص١١٠٨، ج٥، ص١٨٣٤.

وقال في مصاحبة اللئام، مستظرفًا:

وكم قائلٍ قد قال لي فيك مرة: أتصحب ذا بخل ولستَ بذي بخلِ؟
فقلت: أنا المفتاح والقُفْلُ صاحبى وهل يوجد المفتاح إلا مع القفل؟[1]

إن **الحسد**[2] "من أخلاق اللئام، وتركه من أفعال الكرام، ولكل حريق مطفيء، ونار الحسد لا تطفأ"[3]، وقد كان الحسد سمة لهذا العصر نتيجة لوجود هذا التفاوت الطبقي بين فئات مجتمع القرن الثالث الهجري، فكان من الطبيعي والمنتظر أن يحسد الفقير ما لدى الغني من ممتلكات، يقول ابن الرومي في ذم الحاسد:

ليكفِكَ حاسدا حَسَدُه وما تَصْلى به كَبِدهْ
فلو أسعرته نارا لكانت دون ما يجده
وذي حسد يكاشِرُني وتحتُ جِنَانه رَصَدُهْ
يبيتُ إذا تذَّكرني وحمى خَيْبَر تَرِدُهْ
ويرمَدُ حين يبصرني فَدام بعينه رَمدُه
أصيبُ سَواء مقتله على أنْ لستُ أعتمده[4]

(١) الديوان، ج٥، ص٢٠٠٨ (الطويل).

(٢) ابن حِبان البُستي: روضة العقلاء ونزهة الفضلاء:، ص١٣٤. الجرجاني: التعريفات، ص٩٣. انظر ابن قيم الجوزية: الروح، ص٧٤٠. المستطرف في كل علم مستظرف، ص٣٠٥، وما بعدها.

(٣) روضة العقلاء (المرجع السابق)، ص١٣٤. روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، ص١٣٤. انظر – أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري: الفروق اللغوية، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٠هـ – ١٩٨٠هـ.، ص١٩٩. الجرجاني: التعريفات، ص١٣١.

(٤) الديوان، ج٢، ص ٦٧٤، ٦٧٥ (مجزوء الوافر).

جاء لنا الشاعر بصورة من صور الحسد: وهو الشخص الذي يحسد آخر على ما معه من مال، ولكي يتجنب الإنسان هذا الحسد يدعونا إلى الإنفاق على المحتاجين، يقول:

مازِلْتَ تُشْرِكَ في ثرائِك حَاسِداً حَتّى غَدَوْتَ ولَسْتَ بالمَحْسُود
إلاّ علـى مـا لَسْـتَ تَملُـك بَذْلـه مِن صِدْق بَأْسٍ أو بَراعَةِ جُودِ[1]

يأتي هنا بصورة لممدوح يعطي بلا حدود حتى أن كرمه هذا أغلق عليه باب الحسد، ولم يعد هناك من يحسده على ما لديه من ثراء وغنى، ولأن هذا الممدوح لا مثيل له في الكرم والشجاعة فقد أشرك معه هذا المحتاج في الثراء والغنى حتى لم يدع له فرصة ليحسده.

لقد أكثر ابن الرومي من وصف قيمة الكرم في قصائده المدحية خاصة، وقد يكون ذلك على المستوى الشخصي أملًا في حياة كريمة تمكنه من العيش وتكفيه العوز والحاجة، وقد يرجع ذلك أيضًا لإحساسه الدائم بأن هذه القيمة مهددة، وخصوصا بعد دخول الكثير من الأجناس المختلفة، إضافة إلى الصراعات السياسية والأوضاع الاجتماعية التي كانت قائمة وقتئذ، والذي أدى بدوره إلى عدم استقرار المجتمع في تلك الحقبة من الزمن، الأمر الذي جعله يتفنن في تصوير تلك القيم الأخلاقية وتعزيزها بهجاء ما يضادها من الصفات كالبخل واللؤم ترسيخًا لها، والتي كانت إحدى منهجيته الأخلاقية المعتادة في الوصف.

قد يسقط حقك جودًا وكرمًا وإحسانًا مع قدرتك على الانتقام، فتؤثر الترك رغبة في الإحسان ومكارم الأخلاق، هذا هو **العفو**[2]، كما أنه خلق عظيم، يقول: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾[3]،

(١) الديوان، ج٢، ص ٧٢٩ (الكامل).

(٢) شمس الدين بن قيم الجوزية: الروح، دراسة وتحقيق: د.بسام علي سلامة، دار بن تيمية، الرياض، ط١، ١٤٠٥ه- ١٩٨٦م، ص٧١٨.

(٣) سورة الشورى: آية ٤٠.

وقولـــه تعـــالى ﴿وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ٢٣٧﴾[1]، يقول الشاعر:

ويَغْفِرُ للهَـافِينَ غَيـرَ مَقَصّـر ولاَ جَاهِلٍ مَـا قَدْ أتَـوَا حِينَ يَغْفِرُ
ولكنْ يُثِيبَ المَحْسِنينَ مَثُوبةً يُنَافِسـهَم فِيهـا المُسـيءَ فَيقْصِـرُ[2]

فهذا الرجل يغفر للمسيئين ليس جهلاً منه بما ارتكبوه من آثام، ولكن رغبة منه في الإصلاح، فيثبت للمحسنين مثوبة تجعل هؤلاء المسيئين يتراجعون عن الإساءة وينافسوهم في الاصلاح والنفع، وهو بذلك يعطيه صفة القدرة على الغفران، وقد يقصد في ذلك أو يشير إلى مدى سماحته، وقد أكد على هذا المعنى من خلال تكرار الفعل المضارع (يغفر- يثبت – تعفو – ينافسهم)، يتنقل الشاعر بين صفتي العفو والمغفرة، وإن كان في الظاهر لهما نفس المعنى، ولكن لكل منهما معنى ‘عميق في التفسير، فـ"العفو: إسقاط العذاب. والمغفرة أن يستر عليه بعد ذلك جرمه... فإن الغفران ينبئ عن الستر والعفو ينبئ عن المحو"[3].

يدعونا ابن الرومي إلى العفو عند المقدرة قائلاً:

أتـــاني مقـــالٌ مـــن أخ فاغتفرتُـــهُ وإن كـان فيمـا دونَـهُ وجـهُ مَعْتَـب
وذكَّرتُ نفسي منـه عند امتعاضـها محاسنَ تعفو الذنب عن كل مُذنب
ومثلـي رأى الحُسـنى بعـينٍ جَليَّـةٍ وأغضي عن العوراء غيرَ مُؤنِّب
فيـا هاربـاً مـن سُـخطنا مُتنصـلا هربـتَ إلـى أنجـى مَفـرّ ومَهـرب

(١) سورة البقرة: آية ٢٣٧.
(٢) الديوا، ج٣، ص ١٠٠٩ (الطويل).
(٣) أبو هلال العسكري: الفروق في اللغة، ص٣٦٢،٣٦٣.

فعـــذرُك مبســـوط لـــدينا مُقـــدَّم ووِدُكَّ مقبـــول بأهـــلٍ ومرحـــب[١]

إن "العفو والصفح متقاربان في المعنى... العفو ترك عقوبة المذنب، والصفح :ترك لومه"[٢]، فالعفو بذلك صفة جليلة من صفات المحسنين، كما أنها من شيم الكرام، حيث التجاوز عن السيئات والزلات، يقول ابن الرومي في الإغضاء عن الذنوب:

إنـي لأغضـي عـن الـزلات أثبِتُهـا ذِكرا إذا كان بعض الغضِّ نِسيانا
أُغْضِـي الجفونَ عن السوأى مراقبةً لِمـا يكـون مـن الحُسـنى ومـا كانـا
أجزى الأخلاء صَفْحًا عن إساءتِهم إذا أســـاءوا وبالاحســـان إحســـانا
ولـــيس ذاكَ لآبـــائي ومجـــدِهِمُ لكـن لأنـي اتخـذتُ العَدْلَ مِيزانـا[٣]

لا ريب أن راحة النفس مطلوبة، تلك الراحة المتمثلة في الصفح وترك الإساءة، يقول أحدهم: " لو لم يكن في الصفح وترك الإساءة خصلة تحمد إلا راحة النفس ووداع القلب، لكان الواجب على العاقل ألا يكدر وقته بالدخول في أخلاق البهائم، بالمجازاة على الإساءة إساءة، ومن جازى الإساءة إساءة فهو المسيء، وإن لم يكن بادئًا... وما الفضل إلا لمن يحسن إلى من أساء إليه"[٤].

ويرغبنا ابن الرومي في صفة العفو والتسامح بهجاء ما يضاد هذا الخلق الحميد، فيهجو **الحقد**[٥]، الذي هو حفظ العداوة في القلب

---

(١) الديوان، ج١، ص ٢١٢ (الطويل)

(٢) موسوعة الأخلاق الإسلامية إعداد: مجموعة من الباحثين بإشراف الشيخ عَلوي بن عبد القادر السقاف الناشر: موقع الدرر السنية على الإنترنت **dorar.net** عدد الأجزاء: ٣ ، ربيع الأول ١٤٣٣ هـ ، ج١، ص٤٢٣.

(٣) الديوان، ج٦، ص ٢٦٠١ (البسيط).

(٤) أبو حاتم بن حِبان البُستي: روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، ص١٦٩. محمد علي العجيلي: الأخلاق عند فرويد، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ١٩٨٩م، ص١٩.

(٥) الجرجاني: التعريفات، ص٩٥.

والتربص لفرصتها، وهو من الصفات غير الأخلاقية، ويدعوهم شاعرنا إلى التحلي بما دون ذلك من الصفات الحميدة كالتسامح والعفو وغيرها يقول:

يـا مـادح الحقـدِ محتـالا لـه شَـبها لقـد سـلكت إليـه مسـلكاً وَعِثـاً
الحقـدُ داء دويٌّ لا دواء لـه يَـرى الصُّـدورَ إذا مـا جمـرة حُرثـا
فاسـتشفِ منـه بصفـح أو معاتبـةٍ فإنـما يـبـرأ المصـدورُ ما نـفثـا
العَفْـوُ أقـربُ للتقـوى وإن جُـرُم مـن مجـرمٍ جـرم الأكبـاد أو فَرشـا
يكفيـك فـي العفـو أن الله قرَّظـه وَحْيا إلى خير من صلَّى ومن بُعِثَا[1]

كما يحثنا ابن الرومي ويرشدنا إلى إتباع الخلق الكريم والصفات الحميدة والابتعاد عن هذا الخلق السيئ الذي يشين من يتصف به، ويدعو إلى اتباع الحق الذي يكون دائمًا منصفًا وناصرًا لمبتغيه، يقول في هجاء الحقد والسمو بالنفس البشرية نحو التسامح والمحبة:

إن الحُقُـود إذا تـذكرها الفتـى تحيـا حيـاة الجمـر بالمِسـعار
ولعلهـا إن لا تضـرَّ عـدوه وهـو المسـلِّف عاجـل الإضـرار
تَصْلَى جوانحَ صدره من حقده بلهيـب جمـرٍ ثاقِـب وأُوار
فلصـدرهِ مـن ذاك شـرُّ بِطانـة ولقلبـه مـن ذاك شـر سُـعار
وكفـي الحَقود مهانَّـة وغضاضـة إن لسـت تلقـاه عـدوَّ جَهـار
لكنـه يمشـي الضَّـراء بحقـده لـيلا، ويَلبـد تحـت كـل نهـار
يلقـي أعاديَـه بصـفحة ذلـةٍ سـلمَ اللسـان، مُحـارب الإضـمار
إيـاك واستضـعافَ حـقّ إنـه فـي كـل حـينٍ حاضـرُ الأنصـار
والحـق والشُّـبَهُ التـي بإزائـه كالشـمس جاوَرها هِـلالُ سِـرار[2]

(١) الديوان، ج٣،ص ١٠٥١ (الطويل). انظر الديوان، ج١، ص ٣٩٥، ٣٩٦ (البسيط).
(٢) الديوان، ج٣، ص ٩٢٩ (الكامل).

إن **الصبر**، هو العون على النوائب، وتاج الفضائل، وعنوان الفلاح في الدنيا والآخرة، كما أن ثمرته الفرح وعقباه النجاح، يقول:

إذا الصبر والتجمل دامـا للفتي الحر هانت الأسلاب[١]

كما أنه الصبرعن إظهار الجزع[٢]، وهو بذلك صبر الإنسان على بلاء لا يقدر علي إزالته أو التخلص منه، يقول تعالي ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ ١٠﴾[٣]

، لذلك يجد ابن الرومي أن الصبر واجب وضرورة على كل انسان، كما أنه المهرب المُنجي من مصائب الدهر، يقول:

أرى الصبر محمودًا وعنه مذاهبُ فكيف إذا ما لم يكن عنه مذهبُ؟
هناك يَحِقُّ الصبرُ والصبرُ واجب وما كان منه كالضرورة أوجبُ
فشدَّ امرؤٌ بالصبر كفا فإنه له عِصمة أسبابُها لا تُقضَّب
هو المَهْربُ المنُجِي لمن أحَدقتْ به مكارِهُ دهر ليس منهن مَهْرب[٤]

نهاية الصبر هو حسن الجزاء من رب العالمين، لذلك يجب أن يتقبل الإنسان بنفس راضية ما يصيبه من مصائب. والصبر فضيلة يحتاج إليها كل إنسان في كل أمور حياته، يقول الشاعر داعيًا الخليفة المستعين إلى التحلي بالصبر:

صبرًا أمير المؤمنينا فالله يجزي الصابرينا[٥]

---

(١) الديوان، ج١، ص ٢١٠ (الخفيف)

(٢) الجزع: هو حال قلب مريض بالدنيا، قد غشيه دخان النفس الأمارة... فسار في سجن الهوى والنفس، وهو سجن ضيق الأرجاء، مظلم المسالك، انظر ابن القيم الجوزية: الروح، ص٧١٦،٧٣٧. انظر أبو هلال العسكري: الفروق اللغوية، ص١٩٩.

(٣) سورة الزمر: ١٠.

(٤) الديوان، ج١، ص ٢٢٩ (الطويل)

(٥) الديوان، ج٦، ص ٢٤٦١(مجزؤ الكامل).

وكثيرًا ما يصبر الشاعر على جفاء أصدقائه، فيرميه أحدهم بصفة الإلحاح التي لازمته، ليرد عليه بأن هذا الإلحاح ما كان إلا لاكتسابه كصديق، يقول:

يُعـــذِّبني وأصـــبرُ كـــل يـــوم فينقِمُ أن صبرتُ على عَذابه
ويـــزعُم أننـــي رجـــل مُلِـــحُّ وما ألححت إلا باكتسابه[1]

وإذا كانت هذه الأبيات توضح لنا صفة الصبر، وأن الشاعر كان يصبر على أذى الأصدقاء، إلا أنها تطْلعنا على حقيقة اتصف بها ابن الرومي ألا وهي صفة الإلحاح، فالشاعر كان ملحًا في الطلب والاستجداء طوال حياته، فقد أراق ماء وجهه بحثًا عما يضمن له مؤونة العيش.

يدعو ابن الرومي هنا إلى الصبر[2] على الشدائد مهما كانت العاقبة، يقول:

وإليك الشكاةُ يا ابن الوزيريـ ـنِ فإني في محنتي أيوب
غير أني أرجو كما نال بالصبـ ـر وما نال قبلة يعقوب[3]

ابن الرومي هنا ملمًا بالجانب الديني، وعلى دراية واسعة بمفهوم الصبر قولاً وفعلاً، فيشكو إلى أحدهم راجيًا أن ينال في شدته وصبره – الذي شبهه بصبر سيدنا أيوب لعظمه- ما ناله سيدنا يعقوب بعد الصبر الجميل.

إن **الحلم** من القيم الأخلاقية التي دعا إليها ابن الرومي وهو "الإمهال بتأخير العقاب المستحق... لأنه فعل يقع في محل القدرة، ولا

(١) الديوان، ج١، ص ٣٤٥ (الوافر).
(٢) الجرجاني: التعريفات، ص١٣٧.
(٣) الديوان، ج١، ص ٣٢٢ (الخفيف).

يصح الحلم إلا ممن يقدر على العقوبة"[١]، كما أنه: "الطمأنينة عند سورة الغضب وقيل تأخير مكافأة الظالم" [٢].

أما الحزم: هو استعمال الشدة فيما يقتضي الشدة، واللين حيث يحسن اللين، ويتصل كلًا منهما بالصبر[٣]، يقول:

طويلُ التّأنّي لا العَجُولُ ولا الذي ... إذاَ طَرَقَتْه نَوْبَةٌ يَتَبَلّدُ
لَهُ سَوْرَةٌ مَكْتَنَّةٌ فِي سَكِينَةٍ ... كمَاَ اكْتَنَّ في الغِمْد الجُرَازُ المُهنَّدُ[٤]

يدعو ابن الرومي إلى التأني في الأمور وعدم العجلة، فهذا الرجل لا يتعجل الأمور، بل يتأنى ويفكر في الأمر قبل أن يُقبل عليه، ليس كالمتسرع الذي يُعد آراؤه عن هوى وميل، وهذا يعتبر حُسن تصرُف منه، كما أنه ليس كالبليد الذي تعجزه الأمور، بل كالحكيم العالم بها، كما أنه حليم يخفي غضبه وسورته تمامًا مثل السيف في الجراب، فنحن نعرف أنه قاطع وحاد مهند رغم أنه داخل غمده فإنه حاد يعمل بكفاءة وقت الضرب، فابن الرومي مثقف ومطلع واع لكل ما يكتب.

وهكذا فإننا نادرًا ما نجد الإنسان الحليم المتروي الذي يزن الأمور بميزان العقل، ولكن يأتي الشاعر ليُبَين لنا مدى احتياجنا إلى هذه القيمة في حياتنا، يقول:

نارُ الرّويةِ نارٌ جِدُّ مُنْضجةٍ ... وللبديَهةِ نارُ ذَاتُ تَلْويح
وقَدْ يفَضّلُهَا قَوْمٌ لِعاجِلِهَا ... لكنَّهُ عاجِلُ يَمْضي مع الريح[٥]

---

(١) موسوعة الأخلاق الإسلامية إعداد: مجموعة من الباحثين بإشراف الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف الناشر: موقع الدرر السنية، ربيع الأول ١٤٣٣ ه، ج١، ص١٩١. انظر أبو هلال العسكري: الفروق اللغوية، ص١٩٥.

(٢) الجرجاني: التعريفات، ص٩٨..

(٣) ابن قيم الجوزية: الروح، ص٧٠٦.

(٤) الديوان، ج٢، ص ٥٩٠ (البسيط)

(٥) الديوان، ج٢، ص ٥٦٧ (البسيط).

وقال في الحلم:

وكم جاهِل قد أبدأ الجهلَ مَرةً فقلت أعدْهُ إنني عائدُ الحلْم
ألم تر أنَّ الظلم يُخْسِرُ ظالمًا ويُخْسِرُ مظَلومًا لدى كل ذي علم
إذا ما تلاقَى الحلم والجهل مَرةً فيالكَ من أجرٍ ويالك من إثم[١]

ويقول أيضًا:

لَهُمْ حِلْمُ إنس في عَرَامَةِ جِنَّةٍ وَبأسُ أسُودٍ في دهَاءِ ثَعالِب[٢]

لذلك يجب السير في الطريق الصحيح بالنظر في العواقب وحزم الأمور، يقول:

من أخذ الحذر من المحذور قلَّ تجنِّيه على المقدورِ
فلْيحزِم الناظر في الأمور فإن نجا من كبوة العَثور
لم ينج منجى حائنٍ مغرور يحمله يوما على الغرور[٣]

إن **الوفاء بالعهد وإنجاز الوعد** هو أن يلتزم الإنسان بما عليه من عهود ووعود وواجبات، "كما أن الوفاء بالعهد من شيم النفوس الشريفة، والأخلاق الكريمة، والخلال الحميدة، يعظم صاحبه في العيون، وتصدق فيه خطرات الظنون"[٤] قال تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ﴾ [٥]

، وقال أيضًا: ﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا ٣٤﴾[٦].

---

(١) الديوان، ج٦، ص ٢٣٤٤ (الطويل)
(٢) الديوان، ج١، ص ٢١٩ (الطويل).
(٣) الديوان، ج٣، ص ١٠٤١ (الرجز).
(٤)المستطرف في كل فن مستظرف، ص٢٠٦.
(٥) سورة النحل أية ٩١.
(٦) سورة الإسراء أية ٣٤.

وقد أكثر ابن الرومي ونوع في الدعوة إلى الوفاء بالعهد وإنجاز الوعد، بل ويستعجل من يجده متباطِئًا في ذلك، إن الوضع المادي السيئ الذي كان عليه ابن الرومي، هو الذي دفعه إلى السؤال والإلحاح في طلب الرزق، الذي قد يكون ثوبًا أو مالًا...، يقول مستنجزًا وعدًا له بثوب جديد:

هذا كتابٌ من أخ شاكرٍ ... نُعماك يرجوك لريبِ الزمانْ
أصفاكَ شكرَ القلب عن نيةٍ ... وبعدَ شكرِ القلب شكر اللسان
ولست أشكوك ولكنما ... يشكوك مني موضع الطيلسان
فأنجِز الوعد بثوب له ... من الجياد المرتضاة الحسان[1]

يقول أيضًا في المعنى السابق بدعوة منه إلى عدم المماطلة، ولكنه يُلح في السؤال كعادته:

جُعلِتُ فداك لم أسألْ ... ك ذاك الثوب للكفن
سألتكُم لألْبِسَهُ ... وروحي بَعدُ في البدنِ
وقد طال المِطالُ به ... وخفتُ حوادثَ الزمِن
ألا واجعلْه ممتثِلا ... محاسنَ وجهك الحَسَنِ[2]

وقال ينتجز موعدًا لطلب حاجة له:

وجهي يرقُّ عن اَقتضائكَ حاجتي ... وإذا سكتُّ نسيتُ أو تتناسَي
وإذا اقتضيتُ مطلتني ولويتَنى ... فلقيتُ منك شكاسة ومِراسا
أعْرَيتنى من فضل كفكَ كله ... يا من جعلتُ له الثناء لباسا

(١) الديوان، ج٦، ص ٢٥٤٠ (السريع).
(٢) الديوان، ج٦، ص ٢٤٨٦ (الهزج)

وإخـــال أنـــي جاعـــل فمعجِّـــلٌ بينـــي وبينـــك عفتـــي والياســـا
أطلقْ أبـا العبـاسِ وجهك ضـاحكا فلَمـا عهـدتُك مـرة عباسـا[1]

ويشير ابن الرومي إلى مقولة "وعد الحر دين عليه" قائلاً:

يـــا ســـيدي أنجـــزَ حُـــرُّ مـــا وعـــدْ
والحـــرُّ مـــن أعطـــى أخـــاهُ مـــا وَجـــدْ
ولـــم يكـــنْ ليومـــه فـــي الوعْـــدِ غَـــدْ
لكـــن لـــه فـــي العـــوْدِ بالفضـــل الأبَـــدْ[2]

وإذا كنت لا تستطيع إنجاز الوعد فعليك أن تعتذر فهذا أفضل لك من المماطلة وعدم الوفاء، هكذا قالها شاعرنا:

إذا كان إنجازَ المواعيد كَرهًا فأحسنُ منها قبل ذاك المَعاذر[3]

يذكر أحدهم بعدم نسيان الوعد والوفاء بالعهد لأن في ذلك مخالفة لتعاليم الإسلام، وكأنه يتذكر قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢﴾[4]، قائلاً:

فاذكُرِ الوعدَ فهْو كالعهد والاخـ ـلافُ كالنَّكْثِ وهو بَسْلٌ حرامُ
ودعِ المطـل رشـداً فهـو مَيْـدا نٌ يروضُ النفوسَ فيـه اللئـام[5]

وفي المعنى السابق يقول :

(١) الديوان، ج٣، ص ١١٨٦ ، ١١٨٧ (الكامل).
(٢) الديوان، ج٢، ص ٧٠٣(الكامل).
(٣) الديوان، ج٣، ص ٩٨٤ (الطويل).
(٤) سورة الصف آية: ٢-٣.
(٥) الديوان، ج٦، ص ٢٢٨٠ (الخفيف).

أنْجِـز موَاعـدك التـي قـدَّمتَها يـا مُسدِيَ النُّعمي بغير مَواعِد
مـا دَفْـعُ أمـري بعـدَ مـا أوليتنـي بِـرَّ الشـقيق إلـي حُنُـوِّ الوالـدِ
ولقيتنَـــي فلقيتنـــي مـــتهلِّلاً كالغيث بشِّر بالمعاش الراغدِ
إن المطالَ ـ ولستَ من أصحابه كَدَرُ الصَّنيعِة والفَعالِ الماجدِ
حاشاك من خُلُقِ المجاهدِ لؤْمَهُ واللؤْمُ شَرُّ مُجاهَـدٍ لمجاهِدِ[1]

ويقول أيضًا:

أيها الناكثُ العهَودَ ستَجْـني ندمًا من عُهودِك المنكوثه
أنا بالله وَحـدهُ مستغيـثٌ ويمينًـا لَتأتيني المغوثَه
فاخش ربِّ السماء وأمَنْ هجائي قد كفتني أخبارُك المبثوثه[2]

ويجمع لنا ابن الرومي صفات هؤلاء الذين وعدوا وأخلفوا، فقلوبهم مليئة بالشرور، إلى جانب اتصافهم بالبخل والزور، يقول:

قَـومٌ إذا وَعـدُوا العُفـا ةَ تَربَّصُـوا بِهِـمُ الـدّوائر
وتوقَّعُـوا فَجـآتِهِم كتوقَّـعِ الـوحشِ النّـوافر
وكـأنّهم مِـن خَـوفِهِم حُمُـرٌ نـوافرُ مِـن قَسَـاوِر
فأقـلُّ مَـا يُرضـيهمُ أَنْ يَسـجُنوهُم فِـي المقَـابِر
مـا فـيهمُ عـن منكـر نـاهٍ، ولا بـالعُرفِ آمِـر
بَـلْ كُلهـمْ بالشـرّ أمـ ـمارٌ عـن الخَيـراِت زاجِـر
فالحمـدُ زورٌ عنـدَهم والـذَّمُّ مِـن خيـرِ الـذّخائر
والجـودُ عـارٌ عنـدَهم والبُخـلُ مِـن أعلـى المفـاخر[3]

(١) الديوان، ج٢، ص ٧٠٤،٧٠٥ (الكامل).
(٢) الديوان، ج١، ص ٤٠٣ (الخفيف).
(٣) الديوان، ج٣، ص ١١٠٨،١١٠٩ (مجزوء الكامل).

وإذا ما نظرنا إلى ما يضاد تلك الصفات الحميدة، نجد **النفاق**[١]، الذي يضم مجموعة من الآفات: آفة الكذب وقول الزور والتكبر، إن النفاق: هو أن يظهر عكس ما يبطن، لذلك يحذرنا ابن الرومي منه قائلاً:

لا يَغُرَّنَّك الممُازِقُ بالظا هر في حال مده الإلتقاءِ
من كلام يُوشَي بمدحٍ جميلٍ وحديثٍ كالقهوة الصَّهباء
ويمينٍ كَعَطِّكَ البَرْدَ لا تنْـ ـظِر في سُقمها وفي الإبراء
عبْدُ عَيْن فإن تَغَيَّبَ عنه أكل اللحم، وارتعي في الدماء[٢]

ففي الظاهر قد يعطيك المرء معسول الكلام، ومن وراء ظهرك يشن عليك حربًا ضارية، ومن صفات هذا المنافق الغيبة، وهي : "ذكر الإنسان أخاه بما يكره في غيبته ولو بما فيه، سواء كان في دينه أو بدنه أو نفسه أو خَلقه أو خُلقه أو ماله أو ولده أو والده أو زوجته..."[٣] وكأنه يردد قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ .....وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ١٢﴾[٤]

يقول أيضًا:

ملك النفاقُ طباَعه فتَثَعْلبا وأبي السماحةَ لؤمُه فاستكلبا
فترى غروراً ظاهراً من تحته نَكدٌ، فَقُبِّح شاهدا وُمغَيَّبا
ولشرُّ من جربْتَهُ في حاجة من لا تزال به مَعنَّي مُتعبَا
من لا يبيعُك ما تريد ولا يرى لك حُرمةً إن جئنه مُستوهِبا[٥]

(١) الجرجاني: التعريفات، ص٣١٥. ابن قيم الجوزية: الروح، ص٦٩٤.
(٢) الديوان، ج١، ص ١١٥ (الخفيف).
(٣) المستطرف من كل علم مستظرف، (مرجع سابق)، ج١، ص١٢٦ وما بعدها.
(٤) سورة الحجرات: الآية: ١٢.
(٥) الديوان، ج١، ص ٢٩٧ (الكامل).

يقول ابن الرومي داعيًا إلى التحلي **بالصدق**[١]، وأنه النجاة في الدنيا:

رجل يحب الصادقين لصدقهم والصدق أفضل نجوة للناجي[٢]

يقول أيضًا:

لا يَنْطِقُ الإفْكَ والبُهْتانَ قَائِلُهُم بَلْ قَوْلُ غَائِبُهمَ إفكٌ وبُهْتَانُ
ولاَ يَرى الظُّلمَ والعُدْوانَ فَاعِلُهُم إلاّ إذا رَابَهُ ظُلْمٌ وعُدْوانُ[٣]

هؤلاء القوم لا يكذبون ولا يقولون الإفك، بل أن من يقول عنهم ذلك فهو الكاذب والقائل بالافك، كما أنهم لا يظلمون ولا يعتدون على أحد، وهم لا يبدءون بالظلم والعدوان، ومن بدأ بالظلم والعدوان لهم ردوا عليه ظلمه وعدوانه.

وبصورة تهكمية يأمل أن يسود الصدق بدلًا من الكذب، قائلًا:

أين في الدنيا حكيمٌ كريمٌ أين هو؟ لا، أين إلا الكِذابُ[٤]

كما يدعو إلى التخلي عن **آفة التكبر**، وهى آفة من أعظم الآفات التي غزت ذلك العصر، وكأننا بالشاعر يدعونا إلى **التواضع** وعدم التكبر مصدقًا لقوله تعالى ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ.....﴾[٥].

---

(١) المستطرف في كل فن مستظرف، ج٢، ص٣٥٢. محمد بن إسحاق بن يحي الوشاء أبو الطيب: الموشى (الظرف والظرفاء)، مكتبة الخانجي، تحقيق: كمال مصطفى، ١٣٧٢هـ – ١٩٥٣م، ص٥٥.انظر سورة: البقرة، الآية:١٠.

(٢) الديوان، ج٢، ص ٤٩١ (الكامل).

(٣) الديوان، ج٦، ص ٢٤٢٦ (البسيط).

(٤) الديوان، ج١، ص ٢٧٨ (المديد)، انظر ج١، ص ٦٧٥ (الطويل). ج٤، ص ١٧٠١، ١٧٠٢ (الطويل).

(٥) سورة النساء: آية ٨٦.

إن إعجاب الإنسان بنفسه بصورة تجعله يُحقِّر الآخر رذيلة نهى عنها رب العزة سبحانه وتعالي في قوله: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾﴾[1]،
يقول ناقمًا على المتكبرين:

عَبُـــوسٌ إذا حيَّيْتُـــه بِتَحيّـــة فَيالَـك مِـن كِبْـرٍ وَمِـن مَنْطِـق نَـزْر
يظـــل كـــأن الله يرفـــع قـــدره بما حط من قدري، وصغَّر من أمري
إذا مَا رَآني عَاد أَعْمى بلا عَمى وَصُـمَّ سَمِيعاً مَـا بِأُذْنَيْـهِ مِـن وَقْـرِ[2]

يقول ممتدحًا الأخلاق الحميدة لأحدهم:

مصْبَاحُ نُـورٍ يُـرى الخَفـيُّ بـه جَهْـرًا، ولَـولاَهُ طَـالَ مُحْتَجبُـه
كاللَّيْـثِ فِـي بَأسِـه، وآونَـةً مِثْـل الشَّـجَاعِ الخَفِـيِّ مُنْسَـرَبُه
يشْـهَدُ مَـا خَصّـكَ الإلَـهُ بـه أنّـــك مُخْتـــارُهُ ومُنْتَخَبُـــه
ضَـنَّ بِـكَ الـدّهْرُ عَـنْ حَوادِثِـه فَأنْـــتَ مَأْمُولُـــة ومُرْتَقبُـــه[3]

فهذا الرجل كالمصباح المنير الذي يرشد طالبيه إلى طريق الخير والفلاح، وبدونه لظلوا في ظلمة وعتمة، كما أنه كالأسد في الشجاعة والقوة، وكالحية (الشَّجاع) في المكر والدهاء، فضائله تشهد بأنه تم اختياره من قبل الإله لذلك فهو فى مأمن من حوادث الدهر لعظم أخلاق الحميدة.

---

(١) سورة لقمان: آية ١٨.
(٢) الديوان، ج٣، ص ٩١٠ (الطويل)
(٣) الديوان، ج١، ص ٣١١ (المسرج)

ويقول أيضًا:

لـه خُلُقـاَنِ مـن بَـأسٍ وجُـود يَسُـوسُ كلَيْهمـا الـرَأيُ الأَسَـدّ
يُنـادي باسـمه غَيـثٌ ولَيْـثٌ هِزَبـرٌ يفْـرِسُ القَصْـراتِ وِرْدُ[1]

فهـذا لـه خلقـان - يتمنـى كـلاً مِنَّـا التحلـي بهمـا - وهمـا الجـود والشجاعة، فكليهما ناتج عن الرأي الصائب، إذ أنه بذلك يفوق الغيث في الكرم، والليث في الشجاعة والقوة والإقدام.

وفي مقابل **صفة الشجاعة**[2]، التي هي مفتاح النصر والفلاح في حركة الإنسان الاجتماعية سواء في ميدان الحرب أو في ميدان السياسة والاجتماع وغيرها من الميادين الأخرى، نجده يذم **الجبن**، متبعًا منهجه، (نفي النفي إثبات)، فالجبن من الرذائل الأخلاقية في منظومة القيم، يحط هذا الفعل من قدر صاحبه، ويورثه الذِلة والمهانة، لذلك يدعو ابن الرومي إلى الشجاعة، ذامًا صفة الجبن:

عجبـا لمـن يلقـي الحـرو ب فـلا يُقاتـل أو يُناجـدْ
لا سَّـيما مـن كـان يـو قـن أنـه إن مـات عائـدْ
خوفـا وإشـفاقا، وإر صـادُ الحتـوف لـه رواصـد
إن قـال: إن الـنفس وا حـدةُ، فـإنَّ المـوتَ واحـد[3]

(١) الديوان، ج٢، ص ٧٧٣ (الوافر)

(٢) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: تهذيب الأخلاق، علق عليه، أبو حذيفة إبراهيم بن محمد، دار الصحابة للتراث، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ ـ ١٩٨٩م، ص٢٦. ابن قيم الجوزية: الروح، ص٧٠٥. أبو محمد علي بن أحمد بن حزم الأندلسي: الأخلاق والسير، تحقيقم إيفا رياض، راجعه وقدم له/ عبد الحق التركماني، دار ابن حزم، د.ت، ص٩٠. انظر ديوان ابن الرومي: ج٤، ص ١٥٧٥ (الرمل)، ج٦، ص ٢٣٤٣ (الطويل).

(٣) الديوان، ج٢، ص ٦٤٢ (مجزوء الكامل).

والجبن "يتولد من سوء الظن وعدم الصبر، فلا يظن الظفر، ولا يساعده الصبر"[١]، لذلك يحثنا ابن الرومي على ترك هذه الصفة الذميمة، قائلاً:

لا تَجْبُنَنَّ لأن النفس واحدة فإنما الموت أيضاً واحد، فَقَدِ
ما يَجْبن المرءُ إلا وهْو معتقد أو مُشفِق أنه إن مات لم يَعُدِ[٢]

وهكذا يدعونا الشاعر إلى عدم الجبن، بل يجب أن نتصف بصفة الشجاعة التي تتضمن الإقدام وقت الخطر، فالمقاتل الشجاع في أرض المعركة هو من لا يحول خوفه من الموت بينه وبين اقتحام المواقف الصعبة التي يُجللها خطر القتل.

وفي **دعوة منه إلى فعل الخير**[٣]، يقول:

وإذا بغي باغٍ عليك بجهله فاقتلّه بالمعروف لا بالمنكر
أحسِنْ إليه ذا أساء فأنتما من ذي الجزاء بَمْسَمع وبمنظر[٤]

كما أن الدال علي الخير كفاعله كما يقول:

أدللْ على الخير تلحق شأوَ فاعِلِه وإن قَدَرت فكُنْ أدنى وسائِلِهِ
واعلم بأن ابتذال الوجه تُخْلقُهُ إلا ابتذالكَه في نَفع آمله
وبذْلَةُ الوجه أحيانًا تُجدِّده كما تجدد سيفًا كَفُّ صاقله[٥]

(١) ابن القيم الجوزية: الروح، ص٧٠٦.
(٢) الديوان، ج٢، ص ٦٩٤ (البسيط).
(٣) انظر المستطرف من كل فن مستظرف:(مرجع سابق)، ص١٦٩.
(٤) الديوان، ج٣، ص ٩٨١ (الكامل). المستطرف من كل فن مستظرف:(مرجع سابق)، ص١٦٩.
(٥) الديوان، ج٥، ص ١٩٩١ (البسيط).

وقال يحض على فعل الخير:

لا تحسب المعروفَ لا معنى له إلاّ نَوَافِلَ حمده وثَنَاهُ
فلقد ترى المعروف يحسُن عند من لم يصْطَنِعْهُ، وحمدُه لسواه[1]

ويقول أيضًا:

وكمالُ الإتقانْ فضلُ مَزيدٍ في عماد البناء أو أوتادهْ
وترى الخيْرَ لا نقيصة فيه غير أنْ لا مَلال من مُسْتزادهْ[2]

وهكذا فَفِعل الخير دائمًا محمود ومحبوب من الجميع، ويدعو ابن الرومي ألا ينقطع بل يظل في زيادة واستمرار لقوله تعالي: (وتزودوا فإن خير الزاد التقوى)[3]

إن **القناعة** كنز لا يفنى، هكذا قالها شاعرنا، فارضَ بما كسبه الله لك ولا تنظر بما فى يد الآخر:

إذا ما كسال الله سربالَ صحة ولم تخل من قوت يَحِل ويَعذبُ
فلا تَغْبِطنَّ المترفين فإنهم علي حَسْب ما يكسوهم الدهرَ يسْلبُ[4]

والخير والرزق مقسم وموزع بين بني البشر بالعدل من العادل سبحانه وتعالى:

أخالقي ربٌّ، رازقي؟
ما رازقي – تالله- إلا خالقي

---

(١) الديوان، ج١، ص ١١١ الكامل.
(٢) الديوان، ج٢، ص ٧١٢ (الخفيف).
(٣) سورة البقرة: آية ١٩٧.
(٤) الديوان، ج١، ص ١٨٧ (الطويل) سورة النحل، ٩٧. المستطرف في كل فن مستظرف، ص١٠٦

فـــــلا تشـــــوِّه خَلّتـــــي خلائقـــــي
ولا يُعِّـــــوجْ طمعـــــي طرائقـــــي[١]

كما أن "تبادل الآراء في أمر من الأمور لمعرفة أصوبها وأصلحها لأجل اعتماده والعمل به" [٢]، هذا ما أراده ابن الرومي حين هجى "أبو الحسن"، الذي لا يقبل **الشورى**[٣] من أصدقائه، لذلك يهجوه قائلًا:

أبـو الحسـين معجـب برأيـهِ لا يقبـل الشَّـورى مـن أصـدقائهِ
فلعنـــة الله علـــى إخائـــه وأَدْخَـل الأجـردَ فـى وَجْعَائِـهِ[٤]

ويتبع ابن الرومي هنا طريقة جديدة، وهي هجاء أبي الحسين بعدم تقبله للشورى إثباتًا وتأكيدًا لتلك القيمة، فهجاء الشاعر لشخص ما بعدم تقبله قيمة من القيم الأخلاقية، من أجل الدعوة إليها، هذا هو قمة الابتكار والإبداع والخروج عن المألوف، وهكذا يعرض الشاعر القيم الأخلاقية في لوحة فنية متكاملة وبشتى الطرق والأساليب، تلك الأساليب وإن تعددت وتنوعت إلا أنها متقاربة المعنى في أثواب تعبيرية مزركشة، لا نملك أمامها إلا الإشادة بها في ظل ما تمدنا به من إيحاءات جديد وعرض مثير، فابن الرومي"شخصية عظيمة بالتجدد، وذوقه عظيم

(١) الديوان، ج٤، ص ١٦٨ (الرجز)
(٢) أحمد محيي الدين العجوز: مناهج الشريعة الإسلامية، مكتبة المعارف – بيروت ١٤٠١هـ ١٩٨١م، ج٢، ص١٢٨. راجع أيضًا حسين بن محمد المهدي: الشورى في الشريعة الإسلامية، تقديم: عبد العزيز المقالح، وزارة الثقافة – دار الكتاب، ٢٠٠٦م، ص٢٨ وما بعدها.
(٣) المستطرف من كل علم مستظرف (مرجع سابق)، ص وما بعده١١٣.
(٤) الديوان، ج١، ص ١١٢ (الرجز)

الاستقلال، وهو لهذا من الشعراء القليلين في العربية، الذين جاءوا بجديد حقا، والذين أضافوا إلى ثروة تجاربنا الإنسانية عمقًا أدبيًا وأثرًا فنياً"[1].

(١) محمد النويهي ، ثقافة الناقد الأدبي، ص ٦٣، ط٢، بيروت ١٩٦٩.

نتائج البحث

إن نتيجة التمازج الذي حدث في العصر العباسي من دخول الكثير من الفئات المختلفة الأخرى للمجتمع العربي، أدى ذلك إلى اختلاط كثير من الثقافات، واستبدال للكثير من القيم الأخلاقية الأصيلة أو نسيانها، علاوة على ما كان عليه العصر من ترف ورفاهية مقتصرة على الطبقات العليا من المجتمع، مما نتج عنه تلك الهوة الكبيرة بين مختلف الطبقات وقتئذ، فأراد ابن الرومي التأكيد على الكثير من تلك القيم، من خلال استخدامه لمجموعة من المفارقات والبِنيات الأخلاقية المختلفة التي خدمته في البوح عما بداخله، أملا في الإصلاح له ولمن حوله، فتقرأ أبياتًا لابن الرومي وليكن عن ذكر قيمة من القيم الأخلاقية ممثلًا من القرآن والسنة، لتجده واعظًا عالمًا بخبايا الحياة، متسع الثقافة والفكر، وعلى ذلك فقد توالت الكثير من الجمل المتناثرة داخل ديوانه والتي تُظهر تلك الثقافة، مما يدل على مدى تفهمه وإدراكه لما يقول، كإشارته مثلًا إلى لطف الله تعالى لنا في الكثير من أمور حياتنا، فيقول: (لولا عجائب لطف الله)، وترديده للفظ الجلالة في مرات كثيرة: (حتى لتحسب أن الله أجبره)، (أعلم بأن الله في ملكوته)، (يكفيك في العفو أن الله قرظه)، (فالله يجزي الصابرينا)، (أنا بالله وحده مستغيث)، (يظل كأن الله يرفع قدره)، (ما رازقي تالله إلا خاالقي)، (فاخش رب السماء وأمن هجائي) إلخ...، بل وقد يذكرنا ببعض قصص القرآن الكريم في الصبر مثلًا: كالأنبياء ومدى صبرهم على البلاء، أملًا في أن يتحلى بالصبر حتى ينال جميل العطاء، فيقول: (في محنتي أيوب)، (وأرجو كما نال بالصبر، وما نال قبله يعقوب).

وإلى جانب استشهاده ببعض سور القرآن الكريم في الكثير من شعره، إلا أنه قد يقف موقف الحكيم المرشد، فيدفع لنا بحكمة مثلا كأن

يقول في موضع إنجاز الوعد (وعد الحر دين عليه)، وفي موضع الدعوة إلى فعل الخير (الدال على الخير كفاعله) إلخ...

ومن طرقه المتبعة، والتي كان لها أكثر الأثر في شعره استخدامه المفارقة، كأن يأتي مادحًا لقيمة ما، ثم يتبعها بضدها فيذمها، "بالضد تتباين الأشياء"، وكذلك قول الشاعر: "ضدّانِ لِما اسْتُجْمِعا حَسُنا... وَالضِدُّ يُظهِرُ حُسنَهُ الضِدُّ"[1]، بل ويصدق عليه قول عبدالقاهر الجرجاني: "الصنعة والحذق في أن يجمع البليغ بين أعناق المتنافرات والمتباينات في ربقة"[2]، وهذا كان ديدن شاعرنا في وصفه لأغلبية القيم الأخلاقية في مجتمعه العباسي، لنصفه بعد ذلك بالبارع الحاذق والبليغ العالم.

وكذلك اتبع ابن الرومي أسلوبه المعتاد في الوصف، وهو أن يلتقط قيمة من القيم الأخلاقية ثم يقلبها على كل الوجوه، فينتقل مثلًا بين بعض القيم المتقاربة في المعنى، المختلفة في العمق التفسيري، كالعفو والمغفرة والصفح، وذلك للتأكيد عليها وإثباتها.

مهما كان الإنسان رافضًا للمجتمع الذي يعيش فيه، ورافضًا لأخلاق هذا المجتمع لأنها لا توافق فطرته ومصادر القيم والأخلاق، فهو مضطر أن يتعامل مع المجتمع، تمامًا كما فعل ابن الرومي، مادحًا لقيمة أخلاقية مثلًا، وهذا قد يكون مألوفًا للقاريء أن تشيد بالأفضل والأحسن في مجال المدح، أما أن يأتي ترغيبه لقيمة من القيم الأخلاقية

---

(١) ابن خير الإشبيلي، فهرسة ابن خير الإشبيلي، دققه وضبط نصه وعلق عليه: بشار عواد معروف – محمود بشار عواد، دار الغرب الاسلامي – تونس، ط١، ٢٠٠٩ م، ١/ ٤٩٢-٤٩٣.

(٢) أبو بكرعبدالقاهر بن عبدالرحمن بن محمد الجرجاني: أسرار البلاغة، قراءة وتعليق محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة، د.ت، ص١٣٦.

في مكان الهجاء والذم، بل ومرغبًا فيها، كهجائه لأحدهم بأنه لا يقبل الشورى من أصدقائه، مرغبا في تلك القيمة من خلال هجائه هذا، فهذا هو الخروج عن المألوف، وهذا هو الشاعر المتنوع المبتكر في معانيه وأساليبه.

بل وقد يلجأ إلى هجاء صفة مذمومة بعينها، فبدلًا من أن يهجو الشخص الذي يمتلكها، يخرج عن المتعارف عليه والمتبع ليهجوها، كهجاء الحقد، معددا النتائج التي ستُجنى من جرَّاء التخلق بها.

وقد يأتي بصور جمالية متعددة للقيمة المذمومة، من أجل التنفير منها، في مقابل إثبات مثيلتها من القيم المحمودة، مثلًا كصورة البخيل الذي يزداد صلابة عندما تغمره الماء، وصورة أخرى له ببئر تتغير رائحته وتصبح كريهة إذا لم يؤخذ منه السقاة، إثباتًا لقيمة الكرم.

إن القيم الأخلاقية ترتبط بكل فرد على حدة، ومن ثم تتعدى لتؤثر في بقية الأفراد من حوله، وبعدها تنتقل ليكون لها الأثر الأكبر في تغيير أخلاق المجتمع، وهكذا فأخلاق المجتمعات ترتبط بالأفراد وقيمهم الأخلاقية التي يتمسكون بها ويحافظون عليها، يتطلع ابن الرومي إلى مثل ذلك عندما يذكر لنا قيمة الكرم مثلًا داعيًا إليها أو مادحًا أحدهم ظنًا منه وأملًا في أن تعم تلك القيمة المجتمع أجمع، فيستفيد ويستفاد الجميع، بل وقد يستخدم قيمة من القيم الأخلاقية ويوظفها لصالحه من خلال الإلحاح بها، فمن أكثر القيم التي ألح عليها (التذكير بإنجاز الوعد والانتباه إلى ما سيجني من وراء نكث هذا الوعد)، فيعدد التبعات المترتبة على التحلي بتلك الصفة المذمومة، وبالمثل كان أكثر القيم الأخلاقية التي ذكرها الشاعر.

وهكذا وبعد هذا العرض الموجز لوصف الجانب الأخلاقي عند الشاعر، وكيفية تناوله، نكون قد أدينا بعضًا من حقوق ابن الرومي

علينا، وهو الدفاع عنه، وإخراجة من دائرة السوداوية، إلى دائرة الإبداع المتنوع، من دائرة الجانب الكاتم والمظلم إلى الجانب الآخر من حياته المشرقة، تلك التي وإن لم تكن واقعه الحي إلا أنه يأملها له ولمجتمعه.

يضم ديوان ابن الرومي الكثير من ألفاظ القيم الأخلاقية في مجتمع القرن الثالث الهجري، إذ جاءت هذه الدراسة المصغرة مخالفة لما هو مألوف عن الشاعر، الذي لم يدرس دراسة مستقلة وافية أعطته حقه في هذا المجال، لذا من الممكن أن تعقد دراسة مطولة عن ألفاظ القيم الأخلاقية للمجتمع العباسي من خلال شعر ابن الرومي، وكيفية توظيفها (دراسة اجتماعية وصفية)، وأسلوبه المتبع في وصفه لتلك القيم.

كما أرجو أن يكون وفقني الله في إبراز هذا الجانب من شعر ابن الرومي، فليس هناك صحة للمقولة المتداولة بأن هذا أو تلك قد قُتل بحثًا، بل صدقًا كما قال عماد الدين الاصفهاني: "إنه لا يكتب إنسان كتابًا في يومه إلا قال في غده لو غير هذا لكان أحسن، ولو زيد لكان يستحسن، ولو قدم هذا لكان أفضل، ولو ترك هذا لكان أجمل، وهذا من أفضل العبر، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر"، وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت، وهو نعم المولى ونعم النصير.

والله من وراء القصد، وهو يهدي السبيل،،،

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.

١. أحمد شوقي: الديوان، دار صادر، بيروت، د.ت.

٢. أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبدالصمد الجعفي الكوفي الكندي ابو الطيب المتنبي: الديوان، دار بيروت، بيروت، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

٣. أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغداداي أبو بكر: الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، تحقيق دمحمود الطحان، مكتبة المعارف، الرياض، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

٤. أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر (ابن خلكان): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر - بيروت، ج٣، ١٩٠٠م.

٥. إبراهيم عبدالقادر المازني: حصاد الهشيم، مؤسسة هنداوي، ٢٠١٠م.

٦. إيليا الحاوي، فن الهجاء وتطوره عند العرب، دار الثقافة، لبنان، 1998.

٧. إيمان عبد المؤمن سعد الدين: الأخلاق في الإسلام -النظرية والتطبيق، مكتبة الرشد، د.ت.

٨. بدوي بطانة: معلقات العرب، دراسة نقدية تاريخية في عيون الشعر العربي، دار الثقافة، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٧٤م.

٩. أبوبكرعبدالقاهرعلي بن محمد الشريف الجرجاني: التعريفات، لبنان- بيروت، ١٩٨٥م.

١٠. أسرار البلاغة، قراءة وتعليق محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة، د.ت.

١١. جميل صليبا: المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت- لبنان، ١٩٨٢م، ج٢.
١٢. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، مطبعة المجمع العلمي، العراق، ١٩٥٧م، ج٦.
١٣. أبو حاتم بن حِبّان البُستي: نزهة العقلاء ونزهة العقلاء، تحقيق/ محمد محيي الدين، محمد عبد الرازق حمزة، محمد حامد الفقي، دار الكتب العلمية، د.ت.
١٤. أبو الحسن علي بن العباس بن جريح، ابن الرومي: الديوان، تحقيق حسين نصار، الطبعة الثالثة، دار الكتب القومية، القاهرة، ٢٠٠٣م.
١٥. حسين بن محمد المهدي: الشورى في الشريعة الإسلامية، تقديم: عبد العزيز المقالح، وزارة الثقافة - دار الكتاب، ٢٠٠٦م.
١٦. الحافظ أبي حاتم محمد بن حِبان البُستي: روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، تحقيق محمد حامد الفقي، مكتبة السنة المحمدية، د.ت.
١٧. أَبُو ٱلْحَسَن عَلِيّ ٱبْن ٱلْحُسَيْن ٱبْن عَلِيّ ٱلْمَسْعُودِيّ: مروج الذهب ومعادن الجوهر، القاهرة، ١٣٤٦هـ، ج٤.
١٨. أحمد محيي الدين العجوز: مناهج الشريعة الإسلامية، مكتبة المعارف، بيروت، ج٢، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.
١٩. حسنى عبد الجليل يوسف: الشعر والمجتمع الجاهلي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، د.ت.
٢٠. الحافظ الخطيب البغدادي: الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، تحقيق محمود الطحان، مكتبة المعارف- الرياض، ١٤٠٤ه- ١٩٨٣م.

٢١. ابن خير الإشبيلي، فهرسة ابن خير الإشبيلي، دققه وضبط نصه وعلق عليه: بشار عواد معروف - محمود بشار عواد، دار الغرب الاسلامي – تونس، ط١، ٢٠٠٩ م.
٢٢. أَبُو زَيْدٍ وَلِيُّ الدِّيْنِ عَبْدُ الرَّحْمٰنِ بن مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن الحَسَن، ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، دار إحياء التراث العربي، لبنان- بيروت، الطبعة الرابعة، د.ت.
٢٣. شَمْسْ اَلدِّيْنْ أَبُو اَلْعَبَّاسْ أَحْمَدْ بْنْ مُحَمَّدْ بْنْ إِبْرَاهِيمْ بْنْ أَبِي بَكْرْ، ابن خلكان: وفيات الأعيان وأبناء الزمان، مطبعة عيسى البابي الحلبي، مصر، د.ت.
٢٤. شهاب الدين بن محمد الأبشيهي: المستطرف في كل فن مستظرف، تحقيق: محمد خير طعمة الحلبي، ط٥، ٢٠٠٨م، دار المعرفة، بيروت- لبنان.
٢٥. أبو عبدالله محمد بن أبي بكر بن أيوب بن قيم الجوزية: الروح، تحقيق محمد أجمل أيوب، دار عالم الفوائد، جدة، د.ت.
٢٦. أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: تهذيب الأخلاق، علق عليه، أبو حذيفة إبراهيم بن محمد، دار الصحابة للتراث، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م.
٢٧. عادل العوا: القيمة الأخلاقية، مطبعة جامعة دمشق، ١٩٦٠م.
٢٨. عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي: معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم، المحقق: أ. د محمد إبراهيم عبادة الناشر: مكتبة الآداب - القاهرة / مصر الطبعة: الأولى، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤ م.

٢٩. أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق، وتعليق/ محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، ط٥، ١٤٠١هـ ١٩٨١م.
٣٠. فاطمة مهدي البزال: المنظومة الأخلاقية وصدى تجلياتها في الشعر العربي، مجلة العربي، العدد(٧٧٨) سبتمبر، صفر،١٤٤٥-٢٠٢٣م، (مقال).
٣١. أبُو اَلْفَرَجْ عَلِي بْنْ اَلْحُسَيْنْ بْنْ مُحَمَّدْ بْنْ أَحْمَدْ بْنْ اَلْهَيْثَمْ اَلْمَرْوَانِيَّ اَلْأُمَوِيّ اَلْقُرَشِيّ الأصفهاني: الأغاني، تحقيق: إحسان عباس، ج١٢، دار صادر بيروت، ط١، ٢٠٠٢م.
٣٢. محمد بن إسحاق بن يحي الوشاء أبو الطيب: الموشى (الظرف والظرفاء)، مكتبة الخانجي، تحقيق: كمال مصطفى،١٣٧٢ هـ - ١٩٥٣م.
٣٣. محمّد بن بشير بن عمر الإبراهيمي: آثَارُ الإمَام مُحَمَّد البَشِير الإبْرَاهِيمِي، جمع وتقديم: نجله الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، ج٤، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م.
٣٤. أبو محمد علي بن أحمد بن حزم الأندلسي: الأخلاق والسير، تحقيقم إيفا رياض، راجعه وقدم له/ عبد الحق التركماني، دار ابن حزم، د.ت.
٣٥. محمد علي العجيلي: الأخلاق عند فرويد، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ١٩٨٩م.
٣٦. محمد ناصر الدين الألباني المحقق: صحيح الجامع الصغير وزيادته، ترجمة :زهير الشاويش، الراوي :سعد بن أبي وقاص، المكتب، الإسلامي – بيروت، الطبعة الثالثة،١٤٠٨هـ.

٣٧. موسوعة المفاهيم الإسلامية العامة، (مجموعة من المؤلفين) المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – مصر، وزارة الأوقاف المصرية، د.ت.
٣٨. موسوعة الأخلاق الإسلامية إعداد: مجموعة من الباحثين بإشراف الشيخ عَلوي بن عبد القادر السقاف، ج١، ربيع الأول ١٤٣٣ هـ.
٣٩. نوري حمودي القيس، الأديب والالتزام، دار الحرية، بغداد ١٤٠٠هـ - ١٩٧٩م.
٤٠. أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري: الفروق اللغوية، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠هـ.
٤١. وِل ديورَانت ويليام جيمس ديورَانت: قصة الحضارة، تقديم: الدكتور محيي الدّين صَابر، ترجمة: الدكتور زكي نجيب محمُود وآخرين، دار الجيل، بيروت - لبنان، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م